إسليمان محمود المتولى

قطوف من ثمار الأدب العباسى

رؤية فنية

دكتور

محمد حامد شريف

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

طبعة ثانية ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-19-1948-2

شعاع من كتاب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله تتنسّم أرجَهَا النفوس الصافية ، وتترسّم خطاها الأرواح السامية وأصلي وأسلم على منبع البيان ، ومهبع العرفان ، والمؤدب بالقرآن سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، حامل أعلام البلاغة ، ورافع ألوية الفصاحة ، ومشذب شجرة الأدب ، ومهذب لغة العرب ، وعلى آله وأصحابه الذين ارتشفوا من رُضابه، واشتقُّوا من آدابه ، فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس ، وبعـــد :

فهذه قطوف من ثمار الأدب العباسيّ الثاني سلكت فيها منهجا حددت معالمه واقتنعت به فكنت أكشف عن المزايا أو العيوب في حيدة تامة ورؤية فنية فكشفت اللثام عمّا يتوارى خلف الألفاظ كما حرصت على أن أوضح صلة النص بالبيئة والمناسبة التي قيل فيها ومدى انعكاس شخصية الشاعر ونفسيته على النص ، كما عرضت للعاطفه من حيث الصدق والكذب ، وكذا الأفكار من حيث الوضوح أو الغموض ، والإبداع والتقليد وانعكاس ذاك كله على الأسلوب والصور البيانية .

وقد سلكتُ في دراستي هذه طريقة لاهي بالموجزة المخلّة ولا بالطويلة المملّة ، لتكون للطالب المتوثب معلماً ومنارةً على طريق البحث والاستنباط ، وهي مهمّة لا أظن أن أحداً يبلغ فيها الحظ الأوفى ، إلا بعـــون من الله عزّ وجل .

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى . * . فأولُ ما تُجنى عليه مواهبُه

﴿ وما تَوْفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب ﴾

دكتور / محمد حامد شريف

الغرض من دراسة النصوص الأدبية

الحق أن الاحتفال بالنصوص الأدبية يعني الاحتفال بعلوم شتى ، فالنصوص الأدبية :إنما تتناول كل جوانب الحياة وأحوال الأحياء ، نرى فيها شخصية الشاب المغامر ، وشخصية الشيخ المجرب ، والعاقل الحازم الحكيم نرى فيها حالات الرضا والسخط وحالات التصوف والابتذال كما نراها في حالات الروية والارتجال .

والغرض من دراسة النصوص الأدبية أن يتأمل الدارس في هذه الحلة التي نسجها صاحب النص فيتذوق ما فيها من جمال المعنى وجلال الفكرة ودقة الخيال وروعة البيان ، وأن يرجع بصره كرتين ليرى ما وراء المعنى والفكرة وما خلف الخيال والأسلوب من مذهب أدبي يتمذهب به صاحب النص أو مدرسة فكرية يدافع عنها أو دين يدين به ، أو حالة نفسية تغمره أو غير ذلك .

والتأمل أو إنعام النظر في دراسة النصوص والتروى في فهمها لهو أمر هام ، فكم من مار بروضة لا ينشق عبيرها ! وكم من مبصر لرياض متفاوتة الحسن ولا يناجي وردها وزهورها !

فهو ينتقل من هذه إلى تلك وقد استوى لديه منظر هذه وتلك !! فما يحس بفارق بينهما ولا يهتدى إلى ما يميز إحداهما عن الأخرى ، إذ كان نظره نظر العابر ، فانتهت به سذاجة المشاهدة إلى أن يكون مدى حكمه أن كل منهما روض جميل ... !!!

إذن فدراسة النصوص الأدبي ، لهي الطريق الأمثل لتربية الملكات وخلق الذوق وتنميته بقدر ما يوهب الأديب من قريحة قادرة على الاستيعاب أولا ، وطلاقة التعبير ثانياً وما أضيع الوقت الذي يبذل من أجل الدراسات الأدبية ، وما أهونها إذا كانت الغاية منها أن تكون زاداً للامتحان أو مادة يملأ بها المؤلفون فراغ مؤلفاتهم متوخين في ذلك تقديم نماذج لأدبه الأدباء أو الكتاب فيقرؤها الدارس مضطراً بغير روح تهديه أو حب يدفعه أو تذوق يستمتع به فإذا ما خرج من قاعة الدرس خرج معه ما تصوره ولا يبقى منه شيء جل أو هان

مدخل في قيام الدولة العباسية :

المتتبع لحوادث التاريخ يجد أن ثورات الشعوب لا تقوم إلا بعد فساد الحكام ؛ لأن فساد الحكام ينشأ عنه ضعف القوانين ، وضعف الأخلاق فتنتشر الرشوة وتنحل الروابط وتخور العزائم كما تسود الميوعة الجماعية والفرار من المسئولية وتسوء استخدام السلطة ، ويستسلم الضعيف ... والحكومة الفاسدة قد تطول وقد تقصر ولكنها على كل حال سائرة إلي زوال .

وقد كان هناك عوامل لسقوط الدولة الأموية أهمها :

١- وراثة الحكم الذى ابتدعه معاوية بن أبي سفيان ليقصر الخلافة على أبنائه مما حرك الفتن والاضطرابات .

٢- وقد ابتدعوا النظام الثنائي الذي يقوم على اختيار رجلين من أسرة الخليفة أحدهما أصلي والآخر احتياطي مما أدى إلى انقسام البيت الأموي وأحدث بينهم صراعاً على الحكم .

٣- كثرة الأحزاب المطالبين بالحكم ومنهم الخوارج والشيعة والزبيريين ولكل حزب أعوانه وشعراؤه المناصرين له .

٤- تعصب بني أمية للعرب والعربية ضد الموالي في كل مكان

٥- ضعف الخلفاء وانصرافهم عن مصالح الأمة وانغماس بعضهم في الشهوات والترف والمجون .

٦- أساء بنو أمية معاملة الشيعة وكانت أكبر الحركات عملاً لإنهاء حكم بني أمية وقد قامت دعوتها على أن يكون الحكم لأبناء الإمام علي- كرم الله وجهه -ولكن بعض أئمتهم أوصى بأن تكون الخلافة لمحمد بن عبد الله بن عباس عم النبي (ص) وعملوا على تحقيق ذلك بكل الوسائل وإن تصنع أحياناً بالدعوة للعلويين فكانوا يستجلبون الشعراء ليمدحوهم ، وكان بعض الشعراء يعرض بأولاد على بن أبى طالب وينفون عنهم أحقيتهم للخلافة من دون العباسيين ؛ لأن أبناء على فى نسبتهم إلى النبى (ص) ينحدرون عن طريق ابنته فاطمة - رضى الله عنها - وأما بنو العباس فإنهم أبناء عمومة ، ومن ذلك قول منصور النميرى يمدح أحد الخلفاء ويعرض بالعلويين :

وإن قالوا بنو بنت فحق ● ورثوا ما يناسب للذكور
وما لبنى بنات من تراث ● مع الأعمام فى ورق الزبور

وظل المناصرون لبنى العباس جاهدين لتحقيق هدفهم بكل الوسائل ، فاستعانوا بالرجال الأقوياء وعلى رأسهم "أبو مسلم الخراساني" (ناصر الموالى) الذى استطاع بقوته وسعة حيلته أن يستولي على خراسان ثم سقطت البلاد فى يده واحدة إثر الأخرى ، حتى سقط آخر خلفاء بنى أمية وهو (مروان بن محمد) بعد معركة عنيفة فى موقعة (الذاب) التى غرق فيها عدد كبير من جيشه فى نهر الذاب ولم يصبر أمام جيش السفاح ففر إلى مصر فقتل بقرية بوصير بالجيزة ١٣٢هـ وبقتله انتهت خلافة بنى أمية وآلت الخلافة إلى أبى العباس (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس) القاتل على منبر الكوفة

: أنا السفاح المبيح والثائر المبيد ، فكان أول خليفة عباسي [١] ، وامتدت رقعة الدولة العباسية من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي ، كما امتد حكمهم حوالي خمسة قرون وربع قرن حتى سقطت بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ ، وقد قسم المؤرخون العصر العباسي ثلاثة عصور :

العصر العباسي الأول وهو يبدأ من قيام الدولة سنة ١٣٢هـ وينتهي باستيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ

العصر العباسي الثاني : ويبدأ من السنة المذكورة ٣٣٤هـ والتي وافقت خلافة المطيع (أبو القاسم الفضل بن المقتدر) وقد خلع نفسه ببغداد سنة ٣٦٣هـ وينتهي هذا العصر بسقوط بغداد في يد التتار عام ٦٥٦هـ وهناك من يجعل العصر الثاني عصرين الأول من سنة ٣٣٤هـ وينتهي بحكم السلاجقة الأتراك سنة ٤٤٧هـ .

والآخر : يبدأ منذ تولي السلاجقة الحكم حتى سقوط بغداد في أيدي المغول التتار سنة ٦٥٦هـ .

وانقسمت الدولة الإسلامية في العصر العباسي الثاني دويلات واستقلت كل منها بشئونها الداخلية وإن كان بعضها مازال يعترف اعترافاً رسمياً بالخليفة العباسي ، وهذا الانقسام الذى آلت إليه الدولة وإن أضعفها من الناحية السياسية فانه أفادها من الناحية العلمية ، فقد جعل كل دولة تسابق الأخرى في تشجيع العلماء والعمل على النهضة الأدبية كما حث الكتاب على التأليف .

فالدولة السامانية: في تركستان وخراسان كان من أشهر ملوكها نوح بن منصور الذى أنشأ في بخاري مكتبة كبيرة انتفع بكتبها كثير من الناس.

---

[١]- راجع العقد الفريد ج٤/٣٧٨-٣٨٠لابن عبد ربه والاعتذار في الأدب العربي د. محمد حامد شريف ص٩ وما بعدها .

والدولة البويهية: في العراق وخراسان وفارس ، كان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والصاحب بن عباد ومن أشهر ملوكها عضد الدولة ابن بويه الذى ألف له أبو إسحاق الصابي كتاب التاجي فى أخبار بنى بويه ، وألف له أبو على الفارسي كتاب الإيضاح فى النحو .

والدولة الحمدانية : فى حلب والموصل ، كانت قبلة الأنظار ومحاط رجال الأدب ومن أشهر رجالها سيف الدولة ابن حمدان الذى غص مجلسه بكثير من العلماء والشعراء والأدباء وفى مقدمتهم المتنبي وابن خالويه النحوي وأبو فراس الحمداني.

والدولة الإخشيدية : فى مصر ودمشق وكلمة إخشيد من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس وقد منح الخليفة الراضي عام ٣٢٦هـ هذا اللقب على مؤسس هذه الدولة "محمد بن طغج" وتوفى الإخشيد فى آخر عام ٣٣٤هـ – ٩٤٦م وقد خلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط ، فالسلطان الحقيقي كان فى يد العبد الخصي الحبشي كافور الذى ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدى الإخشيد

والدولة الفاطمية : فى مصر قد أنشأت دارا للكتب وأنشأت الجامع الأزهر وجعلته مدرسة تقوم على نشر المذهب الشيعي وكانت لهم عناية خاصة بالفلك .

والدولة الأيوبية : التى خلفت الدولة الفاطمية فى مصر والشام وقد عملت من جانبها على نشر مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة إلا أنها زادت عن السابقين فى تقريب العلماء إلى مجالسها والإغداق عليهم .

وهكذا تفتت السلطان العريض وصارت الدولة العباسية فى أواخرها غيرها فى أوائلها ، صارت لفظا على غير مسمى ! الكل طامع والكل متطلع إلى الإمارة والظروف مساعدة على التنسيق والتفريق والفساد يلد الفساد والأطماع تحرك الأطماع ،

لكن أمرين جليلين بقيا ، لم يتفرقا ولم يتمزقا هذان الأمران هما العقيدة واللغة فقد بقي المجتمع العربي تعلوه كلمة الإسلام وتقوده عقيدته وإن كثرت في بعض جوانبه انحرافات ، وكذلك بقيت هذه الدول والإمارات في المشرق والمغرب تغار على اللغة الفصحى ، وتتخذها لغة الدولة والحكم والإمارة .[١]

* * *

الشاعر الطموح : أبو الطيب المتنبي

اسمه ونسبه ونشأته :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجُعفي الكندي الكوفي ، وجعفي جد المتنبي ، وكندة محلة بالكوفة وليست كندة القبيلة كما ظن بعضهم خطأ .

وكان والد المتنبي يعرف بعيدان السقّاء يسقي الماء لأهل المحلة وقد هجاه ابن لنكك البصري لما سمع بقدومه بغداد راجعا من مصر فقال :

لكنْ بغداد جاء الغيث ساكنها * نعالهم في قفا السقّاء تزدحم

وقال شاعر آخر :

أي فضلٍ لشاعرٍ يطلب الفضـــــــل من الناس بكرة وعشيًا

عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيّا

وروي أن والد المتنبي سافر به إلى الشام وتنقل به بين حضرها وباديتها ومدرها ووبرها وردده في القبائل .

وكان مولد شاعرنا بالكوفة سنة ٣٠٣هـ ٩١٥م في حي كندة وقد فتح عينيه على أمرين مؤلمين أحدهما ضعة نسبه ، والآخر :

١ – راجع الاعتذار في الأدب العربي ص ١٢ وما بعدها .

فقر أسرته فهو إذن ليس ممن كبُرَ بأنسابهم وأموالهم وأهليهم بل إنه عصاميٌ صميم وكان أبوه سقّاء ؛ ولذلك عيّره أعداؤه وخصومه من الشعراء والأدباء بمنبته الوضيع وأكثروا من تذكيره بوصمته وقد أسرفوا في هذا الباب بما لا يسمح به الأدب الذي ينتسبون إليه فمن ذلك قول الحسين بن لنكك :المذكور وقوله أيضا :"متنبيكم ابن سقاء كوفاني ، ويوحى من الكنيف إليه " ! .. وكأني بأبي الطيب يعترف بذلك العيب لكنه لا يراه مما يغضُّ من القدر أو يحطُّ من الكرامة وذلك حين يقول في أرجوزته التي قالها عند عضد الدولة [1]:

فخر الفتى بالنفس والأفعال ● من قبله بالعم والأخوال

وحين يقول في رثاء جدّته :

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ ● لكان أباك الضخمَ كونُك لي أما

وحين يقول :

ولست بقانع من كل فضلٍ ● بأن أعزَى إلى جدٍ هُمام

وحين يقول في صباه :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ● وبنفسيَ فخرتُ لا بجدودي

وهكذا كان يدافع عن نفسه في مهارة وإن حمل بداخله المرارة بيد أن ذلك لم يضعف من عزمه الموروث عن أبيه ، فقد كان أبوه جلداً لا يعرف اليأس ، طموحاً لا توصد دونه الأبواب .

والمتنبي عربي الأصل "وقد عرّف عن نفسه في إحدى قصائده بقوله : " الفتي العربي " وهو من المتعصبين للعربية ويفخر

١- راجع أبو الطيب بقلم محمد كمال حلمي بك ، وديوان المتنبي للبرقوقي ج١/ ٢٠- ٢٢

بهذه النسبة شأن أمثاله الذين أرادوا أن يظهروا في وقت ساد فيه الأعاجم وتولوا مناصب الدولة وصبغوها بالصبغة الفارسية وانبري للعرب من يدافع عنهم ويرد حملات خصومهم ، ومن هؤلاء أبو الطيب على ما يظهر من قوله:

وإنما الناسُ بالملوك وما * تفلح عُرْبٌ ملوكها عجم
لا أدبٌ عند هم ولاحسب * ولا عهودٌ لهم لا ذمـمُ (١)

قد عرف المتنبي منذ الصغر بذكائه المتوقد وحافظته اللاقطة ، فقد روي أن أبا علي الفارسي سأله عن الجموع التي تجيء على وزن فِعلى بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام فأجابه بأنهما جمعان فقط(حجلي وظرْبى) والأولى: واحدتها الحجَلة بفتح الحاء والجيم وهي طائر ، والأخرى واحدتها ظربان بفتح الظاء والباء وكسر الراء ، وهي دويبة منتنة الرائحة قال أبو علي الفارسي : سهرت ثلاث ليال أبحث عن مثال ثالث لهذا الجمع فلم أجد (٢)

وروى أحد الورّاقين أنه جاء للمتنبي بكتاب من نحو ثلاثين ورقة ليبيعه إياه ، فأخذ أبو الطيب الكتاب وأقبل يراجع صفحاته فلما ملّ صاحب الكتاب استعجله قائلا : يا هذا لقد عطلتني فإن كنت تبغي حفظه في هذه المدة القصيرة فذلك بعيد عليك ، قال المتنبي : فإن كنتُ حفظته فمالي عليك ؟ قال الرجل : أعطيكه – قال الورّاق : فأمسكت الكتاب أراجع صفحاته ، والغلام يتلو ما به حتى انتهى إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كمّه ومضى لشأنه (٣)

١- المرجع السابق ص٣/ط/١٩٢١م
٢ –مقدمة الوساطة بين المتنبي وخصومه ش/أحمد عارف/ى
٣ – مقدمة ديوان المتنبي ش البرقوقي/٢٣

لماذا لُقِّبَ بالمتنبي؟

أرى أن هذاالسؤال هو الذي أوحى إلى كثير من الناس قصة التنبؤ ، أرادوا أن يفسروا هذا اللقب – وتفسيره يسير – المتنبي في اللغة من يدعي أنه نبي وكثيراً ما نرى الناس يخلقون قصة لتفسير اسم مدينة أو قبيلة ، فلم تكن قصة التنبؤ عند المتنبي إلا من هذا القبيل ، والرجل كثير الأعداء والحساد، والذي يسّر لهم هذا الادعاء أن الرجل قد دعا الناس دعوة وقال كلاماً فسجن ، وشاع أمره فجعلوا هذا السجن من أجل التنبؤ ، وذاعت الرواية على مر الزمان ، قال الثعالبي : حكى أبو الفتح عثمان ابن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول : انما لقبت بالمتنبي لقولي :

أنا في أمة تداركها اللـــــه غريبٌ كصالح في ثمود

وهو يقول في القصيدة نفسها :

ما مقامي بأرض نخلة إلا ✱ كمقام المسيح بين اليهود

فقد شبّه نفسه بالأنبياء مرتين في قصيدة واحدة فلقبه بعض حساده "المتنبي" فذاعت ، ثم وُضعت القصة ، واحتاجت النبوة قرآناً فرووا له قرآناً[1] قال أبوعلي بن حامد سمعت خلقا بحلب يحكون : أن أبا الطيب تنبأ ببادية سماوة (وهي بين الشام والكوفة) ونواحيها إلى أن خرج إليه(لؤلؤ) أمير حمص من قبل الأخشيديه فقاتله وأسره وشرّد من كان قد اجتمع عليه من بني كلب وغيرهم من قبائل العرب، وحبسه دهراً طويلاً حتى رجع إلى الإسلام فأطلقه ، وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم أنه

---

[1] – راجع ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام ص ٦٣–٧٥ د/عبد الوهاب عزام

قرآنٌ أنزل عليه ومن ذلك : (والنّجم السيّار والفلك الدّوار ، والليل والنهار إنّ الكفّار لفي أخطار) ([1]) .

وقيل إن سبب تسميته بالمتنبي ، أن قوماً قالوا له : إنّ هاهنا ناقة صعبة فإن ركبتها علمنا بأنك مرسل ، فتحايل يوما إلي أن ركبها فنفرت ساعة ثم سكنت وورد الحي وهو راكبها ، وقيل : إنما سمّي متنبياً لنبوغه وفطنته([2]) وقد مرّ بنا رأي ابن جني في سبب تلقيبه بالمتنبي وهو قوله :

أنا في أمة تداركها اللـــــــ ـــــه غريب كصالح في ثمود

يقول الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي " ذلك رأي نميل إلىالأخذ به فواضح من قصيدته في الاعتقال ومطلعه :

أيا خدّ اللهُ ورد الخدود ✱ وقدّ قدود الحسان القدود

إنّ التهمة التي ألصقت بالمتنبي لم تكن ادعاءه النبوة ، وإنما كانت دعوى أخرى تمشف عنها العقيدة ، ويعترف بها الشاعر ولا يحاول إنكارها وهي اتهامه " بالعدوان على العالمين " أي بالخروج على السلطان ، ويصح أن يكون السبب هو ذلك البيت:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ✱ كمقام المسيح بين اليهود

وليس أيسر من أن يسمع حاسدوه هذا الشعر فيلقبوه بالمتنبي وفي أيامناهذه من أمثال ذلك كثير في الصحف والمجلات ، فإذا أطلق عليه هذا اللقب وسرى في الناس ثم مضت مدة استطاع أصحاب الخيال القصصي أن يخلقوا قصة طريفة يفسرون بها

---

[1]– راجع تاريخ الأدب العباسي الثاني د. أبو الخشب
[2] –راجع الوساطة بين المتنبي وخصومه ص/ك

هذا اللقب ويسندون فيها إليه إدعاء النبوّة .[1] وقد انتهز خصوم المتنبي فرصة القبض عليه ، وأرادوا التشنيع عليه بدعواه للنبوة سخرية به وصرفاً للمعجبين به من المتدينين .

وأرى براءة شاعرنا مما اتهم به إذ لا يعقل أن إنساناً في رجاحة عقله يدعي النبوّة في وقت رسخت فيه قواعد الإسلام وأصوله في قلوب المسلمين وكيف ينسب إليه هذا وقد كان يضيق ذرعاً بكل من يلقبه بهذا اللقب ؟

والجدير بالذكر : أن لبعض الباحثين في دعواه آراء هي" [2] لا تعدوا أن تكون انحرافاً مذهبياً أو معارضة سياسية وتبشيراً بدعوى العلويين ولحقيتهم بالخلافة وتطلعاً من المتنبي إلى ول

ولعل ادعاء النبوّة التي قام بها المتنبي كانت جولة من جولات المصروعين ، أو من قبيل جنون المتطيرين الناقمين على العالم وما فيه ولعل أقواله في الفخر وتعاليه على الأمراء كانت نوبة من جنون العظمة والكبرياء ، والدكتور زكي المحاسني يلقي باللوم على المتنبي وقد أحاط نفسه بجملة من الأسباب التي دفعت من حوله لأن يرمونه بالبهتان ، فيقول :[3]

"فلولا التعاظم الذي ظهر به على القوم مقيماً ونازحاً متودداً إليهم أو داعياً إلي تكتل وائتلاف بين العرب عامة لما هاجوا عليه لقد نقموا منه أن ادعى النسب العلوي وتشبث به ثم زين له ذكاؤه وكبرياؤه أن يشبه نفسه بالأنبياء والمرسلين حين تهجم له شانئوه وحساده فقال :

أنا في أمة تداركها اللـــــــه غريبٌ كصالح في ثمود

---

[1] -ديوان المتنبي للبرقوقي ص ٢٩

[2] - راجع الصبح المنبي ليوسف البديعي

[3] -نوابغ الفكر المتنبي د/ زكي المحاسني ص ٢٩

وما لبث أن خُيِّل إليه أنه أرفع من الملوك والكبراء فقال :

وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يُرى من الشعراء

وكان طموحه وأمله يجتمعان مع ثورته على المنافقين والملفقين فيجد نفسه أفضل منهم ، ويخاطر في مطلبه بالمهج الجسام فيقول :

أيّ محلٍ أرتقي * أيّ عظيمٍ أتقي ؟

وكل ما خلقَ اللـــــه وما لم يخلـق

محتقر في همّتي * كشعرة في مفرقي

وربما كان سجنه لمحض خروجه على الدولة ، وقد نُسب إليه أنه انتهز فرصة ضعف الدولة ودعا إلى بيعته قوماً من أبناء سنه فبايعوه ، فالحبس على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية وهذه الناحية – في رأيي – هي التي تهمّ كل حاكم في المقام الأول .

* * *

شاعرية أبي الطيب المتنبي :

المراد بالشاعرية تلك الطاقة التي يملكها الشاعر في نفسه ويتحكم فيها عندما تدفعه العواطف وتلح عليه الخواطر ، فيصور أحاسيسه ويجسّم معانيه ، وبقدر ما تكون هذه الطاقة من الخصوبة والإجادة والمطاوعة والاستجابة والوعي والثقافة والتوثب والطموح والصقل والصفاء والفهم والإدراك يكون الحكم على صاحبها أو له ، فإما أن يكون في مقدمة النابهين الملهمين أو أن يكون في قائمة المتخلفين المهملين .

مقوّمات الشاعرية :

والطاقة الشاعرية ، لا تكون إلا لطبع موهوب ونفس شفافة وقلب واع ولا يمكن أن تكون خبط عشواء أو مصادفة . ولكي يأخذ الشاعر مكانته الأدبية بين النابهين ، لا بدّ إذن من أن التسلح بالعلم الوفير والتزود بالزاد الثقافي الغزير ، وأن يعايش أحداث عصره وأن يشارك الناس أفراحها وأتراحها

والمتنبي كان هذا الشاعر الذي فرض أدبه ، كما فرض نفسه على العالم من حوله ، لقد جمع إلى الطبع الموهوب الوعي والإدراك والدربة والذكاء ، وكان له من ذلك كله الطاقة الشاعرية الممتازة التي شغلت الأجيال ، وملأت الآذان ، وجعلته واثقاً بنفسه وهو يتحدث عن نفسه فيقول وهو يخاطب سيف الدولة :

وما الدّهر إلا من رواة قصائدي ● إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمّرا ● وغنّى به من لا يُغنّي مغرّدا

أجزني إذا أنشدتَ شعراً فإنّما ● بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني ● أنا الطائرُ المحكيُّ والآخرُ الصدى

أو يقول أيضاً:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ● وأسمعتْ كلماتي من به صممُ

أنام ملءَ جفوني عن شواردها ● ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

كانت شاعرية المتنبي جبّارة اكتسحت الحدود والسدود وتجاوزت الأزمات والعقبات وتغلبت على العراقيل والأسلاك فلم يستطع أحد من الحاقدين أن يوقفها ولطالما نافسه الحسّاد ذيوع صيته وربما غاب عنهم أنه لا يوزن به أمثالهم ، ولقد كان في مقالة أبي فراس التي يرويها المؤرخون أكبر دليل على أن المتنبي كان أشبه بالأساطير وكانت طاقته الشاعرية من

الأمور الغريبة أو العجيبة حينئذ ، فقد رووا أن أبا فراس انتهز فرصة جفاء عارض بين الشاعر المتنبي وسيف الدولة ليقول للأمير : إن هذا الدعيّ الذي يُدلّ عليك بشعره ، ويتعالى بأدبه قد تجاوز بأدبه حدّه معك، وأنت تعطيه ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد يقولها من العام إلى العام وأنا على استعداد لأن أجيء إليك بعشرين شاعراً يمدحونك بأجود من شعره وأروع من معناه ولا يأخذون من المال أكثر مما يأخذ هذا الدّعيّ وحده.

وظل أبو فراس يستفز سيف الدولة حتى رمى المتنبي بدواة لطّخت ثيابه وأسالت الدم على وجهه إلا أن المتنبي ملك زمام نفسه ولم يغب عن وعيه ثم قال :

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا ✱ فما لجُرح إذا أرضاكمُ ألمُ

وكان هذا القول سحابة أطفأت غليل الغضب وغسلت أوضار الحقد ، ومسحت ذلك الغبار الذى كان عالقاً بنفس الأمير الذى قام لمعانقة الشاعر وأعطاه ألفي دينار ليقول على الفوْر :

جاءت دنانيرك مختومة ✱ عاجلة ألفاً على ألفِ

أشبهها فعلك في فيلـــــق ✱ قلّبته صفاً على صفِّ

وهكذا نلمح إلى أي حد كان المتنبي متمكناً في نفسه قوياً في شاعريته ، عنيفاً في خصومته ، ونلمح أيضاً أن تفضيل سيف الدولة له على عشرين شاعراً لم يكن بالأمر الهيّن ، ولا بالحكم العابر ، فسيف الدولة نفسه كان أديباً ناقداً ومتذوقاً بصيراً إذن فتقديمه – وهو عليم بدنيا الأدب – للمتنبي دليل على أن المتنبي كان بناءاً شامخاً أرفع من بنائه وعرشاً أجمل من عرشه ودولة أعزّ من دولته .. وقليل على شاعريته قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ✱ إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ولولا عظمة هذا الرجل ما كانت حملة النقد الكبرى التي وجّهت إليه لنوازع المنافسة والحقد ، ولولا عظمته أيضا ما اختلف عليه النقاد ، و لا نعجب إذا علمنا: أن حملة النقد التي وجهت إليه ربما كانت أعظم مما وجهت إلى الأدب كله في عصره ! وكثيراً ما شغلت الأنظار من حوله !

والحق: أن هذا الرجل كان فلتة من فلتات العصور ونادرة من نوادر الأيام ولا يستطيع المتحدث عنه أن يحدد رسومه وأبعاده بل يجد نفسه أمام عبقرية فذّة ورائعة من الروائع إقرأ له مثلا وهو يتحدث عن مجتمعه فيقول :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها ● لوذاقها لبكي ما عاش وانتحبا
وإن عمّرت جعلت الحرب والدة ● والسمهريّ أخا والمشرفيّ أبا
فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي ● والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

ففي الأبيات تظهر روحه ويبدو إحساسه بالحياة ، وفي الأبيات ترفعه وإباؤه وتعاليه وكبرياؤه ، وعقله واتزانه ، واحترامه للحق وبغضُه للزيف والباطل ، وتمرده على الفوضى التي كانت تسود المجتمعات من حوله . ولما كان المتنبي لا ينتمي إلى اصل كريم ولا إلى أرومة نابهة وجدناه دائماً يكمل نفسه ويعلي قدره ، ويعلي ذكره هنا وهناك وطريقه إلى ذلك كله:هو شعره الذي قوّمه وصقله ، وخياله الخصب الذي غذّاه وبيانه الذي هذبه وأسلوبه الذي اختاره

ولاشك أن المتنبي كان ينهل من معين فيّاض من الثقافة والمعرفة في بيئة للعلم فيها سوق ، وللأدب فيها دولة وقد علمنا أنه لم يقم بمكان واحد ، ولم يعش في بلد بعينه ولكنه تنقّل وارتحل ، وسافر واغترب ، وفارق ونأى ، وركب الأهوال ، ونصّب نفسه لسهام الحاقدين ونبال الساخطين ولا يمكن لرجل يضع نفسه هذا الموضع أو يعرّض صدره لتلك الطعنات أن يهمل بناءه أو أن يتغاضى عن أن يقوّي جانبه ؛ لذلك نهل من

زاد الثقافة والمعرفة ، وكان في كفايته الممتازة موضع إعجاب المعاصرين ، ولا تخلو كتب التراجم من الحديث عن ذكائه النادر وقد مرّ بنا حديث أبي علي الفارسي ، وبعض الورّاقين .

●●●

الأسباب الفنيّة التي خلّدت شعر المتنبي :

أولا : عُرف المتنبي بتوليد المعاني وتتابعها ، تتابع الغيث إذا انهمر ، وأنت أمام هذا الترادف وجرّ المعاني أو مجيئه مرادفاً أو معانقاً تقف موقف الذهول المصحوب بالإعجاب والروعة والحيرة والاضطراب في آن واحد لتلك الخصوبة في الشاعرية وهذه الثروة البيانية ثم بعد ذلك كله تعجب لهذه المعاني التي ينسخ بعضها بعضاً، وينسي الثاني منها الأول وهكذا .. وهذا أنموذج من ذلك الشعر ، دليل هذه الدعوى : يقول المتنبي يمدح سيف الدولة ويبدأ بمناجاة الأطلال على عادة الشعراء الأقدمين:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا ● فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا ● فؤاداً لعرفان الرّسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة ● لمن بان عنه أن نلمّ به ركبا
نذمّ السحاب الغر في فعلها به ● ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحب الدنيا طويلاً تقلّبت ● على عينيه حتى يرى صدقها كذبا
وكيف التذاذي بالأصائل والضحى ● إذا لم يعد ذلك النسيم الذي هبّا
ذكرت به وصلاً كأن لم أفز به ● وعيشاً كأني كنت أقطعه وثبا
وفتّانة العينين قتّالة الهوى ● إذا نفحت شيخاً روائحها شبّا
لها بشر الدّر الذي قلّدت به ● ولم أر بدراً قبلها قلّد الشهبا
فيا شوق ما أبقى ويالي من النوى ● ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى
ومن تكن الأسد الضواري جدوده ● يكن ليله صبحاً ومطعمه غصبا

ولست أبالي بعد إدراكيَ العُلا * أكان تراثاً ما تناولتُ أم كسْبا[1]

والصورة التي يعرضها المتنبي قديمة معروفة ، فالشعراء طالما وقفوا على الدمن فنراه في البيت الأول يغذي فيه النبع الذي كان يمنحه حبه ثم ، هو الآن يمنحه كربه إذ رحلت عنه الشمس التي أشركت وعنه غربت وهكذا يجيد التشبيه ويضيف الجديد في قوله" وكيف عرفنا رسم من لم يدع " ليكمل الصورة ويشعرنا بأنينه وحنينه ، أما نزوله عن الأكوار إجلالاً للربع أن يمر به راكبا ، وذمه للسحاب التي أحدثت به هذا البلى فهي صورة أخرى رائعة وذم السحاب لما تفعله بالمنزل لاحقّ له فيه ولذا هو يرجع عنه إلى هذه الحكمة " ومن صحب الدنيا طويلا" وهي ثنايا هذا المقام العاطفي تشبه حفيف الأوراق الخافت في بستان تعصف فيه الرياح ويبكي فيه المطر لا يكاد يلامس الأذن حتى يشعر الإنسان منه بالرضا والارتياح كأنما يبعث في نفسه الاطمئنان ويشيع فيها الأمان والأحلام.

والبيت الأخير كأنه اعتذار من الغضب الذي ذكره في البيت السابق وكأنه يقول: إنني إذا أدركت معالي الأمور فلست أبالي بعدها أكان ما يحصل في يدي إرثاً أم كسبا ، فالتراث المال الموروث: قال بعض الشراح: " وكان الوجه أن يقول : أتراثاً كان لأن الهمزة لا يليها إلا المسئول عنه فأخّره لإقامة الوزن[2] وهكذا نرى كل بيت على انفراده لبنة من الماس هي وحدها جوهرة كريمة تتفرد بالحسن وتستقل بالجمال فإذا انضمّت إلى غيرها كانت أشبه بالسحر البابلي ، وعلى هذا النحو الذي تتدفق فيه المعاني وهذه الصور التي تتعانق فيها الأخيلة ، وتتهال فيها

---

(1) ديوان المتنبي للبرقوقي ج/1/182 .

(2) المرجع السابق ص186 .

المشاهد مترامية ، نقرأ له أبياتاً أخرى في مطلع قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار فيقول: [1]

بقائي شاء ليس همُ ارتحالا ● وحسن الصبر زَمُّوا لا الجمالا[2]
تولوا بغتة فكأن بينـــــا ● تهيَّبني ففاجـــأني اغتيـــالا
فكان مسير عيسهـــم ذميلا ● وسير الدمع إثرهمُ انهمـــالا
كأن العيس كانت فوق جفني ● مناخاةٍ فلمَّا ثُرن ســـالا
وحجِّبتِ النوى الظبياتِ عني ● فساعدتْ البراقعَ والحجـــالا
لبسنَ الوشيَ لا متجمِّلات ● ولكن كي يَصُنَّ به الجَمـــالا
وضفَّرنَ الغدائرَ لا لحسنٍ ● ولكن خِفنَ في الشَّعر الضلالا
بجسمي مَن بَرَته فلو أصارت ● وشاحي ثقب لؤلؤةٍ لجـــالا
ولولا أنني في غير نـــوم ● لكنتُ أظنني مني خيـــالا
بدت قمراً ومالت خوط بانٍ ● وفاحت عنبراً ورنت غزالا[3]
وجارت في الحكومة ثم أبدت ● لنا من حُسن قامتها اعتـــدالا
كأن الحزن مشغوفٌ بقلبـــي ● فساعة هجرها يجدُ الوصـــالا
كذا الدنيا على من كان قبلي ● صروفٌ لم يدمن عليه حـــالا

والشاعر يريد أن يقول في بيته الأول: "بقائي شاء ليس هم ارتحالا " أي لما ارتحلوا عني ارتحل بقائي ، فكأن بقائي شاء ارتحالا ، لا هم شاؤا ذلك وكأنهم زموا صبري للمسير لا جمالهم لأني فقدت الصبر بعدهم ، وإنما نفى الارتحال عنهم لأن ارتحالَ بقائه أهم وأعظم شأنا ، وهي مبالغة مقبولة واسم ليس في البيت ضمير الشأن وهم: مبتدأ ، وخبره : محذوف أي ليس الأمر والخبر : هم شاؤا فحذف شاؤا لتقدمه في الكلام

---

(1) المرجع السابق ص٣٣٧.

(2) زم البعير : خطمه بالزمام .

(3) الخوط الغصن الناعم ،البان : شجر لين القوام يشبه به القد لطوله ، رنت نظرت .

ويجوز أن يكون (هم) اسم ليس ، إلا أنه استعمل الضمير المنفصل موضع المتصل ضرورة والتقدير : بقاني شاء الارتحال لا هم ، وزموا حسن الصبر لا الجمال .

ويمتد الخيال في البيت الثاني فيصور البين بإنسان قد أخذه بغتة فاغتاله اغتيال مفاجأة ثم يأتي في البيت الثالث بحسن تعليل فيقول : كانت إبلهم تسير الزميل (السير المتوسط) ودمعي ينصبُّ في أثرهم انصبابا وهو في المعنى يحتذي بقول ابن الرومي :

لهم على العيس إمعانٌ يشُط بهم * وللدموع على الخدَّين إمعان

وهو يأتي بحسن التعليل والمبالغة المقبولة فيذكر في البيت السادس أن الأحبة غنيّات بحسنهن عن التجميل بلبس الديباج ولكن يلبسنه ليصن به جمالهن عن أعين الناظرين ، ثم يعلل لتضفير شعرهن لا لطلب الجمال ولكن" خفن في الشعر الضلالا " وذلك لأنها تغشاهن كالليل ، قال ابن جني : قد وصفت الشعراء الشعر بالكثرة ، ولكن لم تفرط في ذلك مثل المتنبي ! قال ابن المعتز :

دعت خلاخيلها ذوائبها * فجئن مَن قرنها الى القدم

وفي قوله:

بدت قمراً ومالت خوط بان * وفاحت عنبراً ورنت غزالا

براعة تنسيق ، وحسن تقسيم والمنصوبات في البيت أسماء وضعت موضع الحال ، كأنه قال : بدت مشرقة ، ومالت متثنية وفاحت طيباً ، ورنت مليحة والمعنى بوضوح أكثر : بدت تشبه القمر في حسنها ومالت تشبه غصن بان في تثنيتها : وفاحت تشبه العنبر في طيب رائحتها ورنت تشبه الغزال في سوادمقلتيها وهومايسمي أويعرف بـ (التدبيج) في الشعر ومثله:

سفرن بدوراً وانتقبن أهلّة ✱ ومسنَ غصوناً والتفتن جآزرا

ثم تأمل معي براعة التشبيه في قوله : "كأن الحزن مشغوف بقلبي" لتجد كيف يعشق الحزن قلبه ؟ وكيف يصله إذا هجرته الأحبة ؟ يقول : كلما هجرتني وصل الحزن قلبي وعلق به . ومشغوفٌ : روي بالعين المهملة ، وبالغين المعجمة ، وقد قرئ قوله تعالى : " قد شغفها حبا " بالعين وبالغين فمن قرأها بالعين فمعناها تيّمها ، ومن قرأها بالغين يعني أصاب شغاف قلبها أو غشي الحب قلبها وشغاف القلب غلافه ، قال قيس بن الخطيم :

إني لأهواكِ غير ذي كذب ✱ قد شفَّ مني الأحشاء والشغفُ

أما الشّعَفُ : فهو إحراق القلب بالحب مع لذةٍ يجدها ، كما أن البعير إذا هُنئ بالقطران يجد له لذةً مع إحراقه ، قال امرؤ القيس :[1]

لتقتلني وقد شعفت فؤادها ✱ كما شعف المهنوءة الرجلُ الطالي

أي أحرقت فؤادها بحبي كما احرق الطالي هذه المهنوءة ففؤادها طائر من لذة الهناء لأن المهنوءة تجد للهناء لذة مع حرقه .[2]

وكثيراً ما تملي عليه تجاريب الحياة الحكمة فيأتي بها عفو الخاطر فيقول "كذا الدنيا على من كان قبلي "فهو يرى الدنيا صورة معادة مكرورة تعيد نفسها مع الأيام ثم بين ذلك فقال :
هي صروف لاتدوم على حالة واحدة

ثانياً :ومن الأسباب التي خلدت شاعريته أنه : لايدوريخلد إنسانمعنىً من المعاني ولا مشكلةً من المشكلات ولاحالٌ من الأحوال إلاويتبين له أن ذلك كله قد صوّره وأحسن تصويره

---

(1) في ديوان إمرئ القيس بالغين والرواية عص١٤٢ ليقتلني أني شغفت...'
(2) راجع ديوان المتنبي للبرقوقي ج/٣/٣٣٩-٣٤٠

وتحدث عنه حديث الحاذق الصَنَع ، وعرض له عرض الخبير بتناوله تناول اللبيب الأريب ولاتلتقي بأديب يتحدث إليك ، ويطوف بك هنا أو هناك دون كون أن يكون ملح حديثه حكمة للمتنبي يستأنس بها أو صورة شعرية رائعة يدفع بها مللاً عنك ، فالمتنبي يأتي بالحقيقة التي يعدها الناس ، ولكن لا يستطيعون تصويرها فيأتي عليها بأسلوبه وخياله فتصبح وكأن أبا الطيب قد استأثر بمعناها بعد أن كانت ملكاً شائعاً ، لكلٍ منها نصيب مشاع " وهذه بعض أمثلة توضح ما أشرتُ إليه ، ويكفي أن تضع بين شطري البيت إحدى أدوات الاستفهام لتظهر لنا طريقة الشاعر في استخدامه النوع المعروف في علم المعاني بشبه كمال الاتصال :وهو وقوع الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى :

أفاضل الناس أعراض لذا الزمن ● لماذا ؟
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن !

لولا المشقة ساد الناس كلُّهمُ ● لماذا ؟
الجود يفقر والإقدام قتّال !

من يهُن يسهُل الهوانُ عليه ● كيف ؟
ما لجرح بميتٍ إيلامُ !

وكل امرئ يولي الجميلَ مُحبَّب ● أردفه بقوله :
وكل مكان ينبتُ العزَّ طيِّب !

وكن على حذرٍ للناس تستره ● شرحه بقوله :
ولايغرّكَ منهم ثغرٌ مبتسم !

لحى اللهُ ذي الدنيا مُناخاً لراكبٍ ● فسّره بقوله :
فكلُّ بعيدِ الهمِّ فيها مُعذَّبُ ![1]

---

(1) لحاها الله : قبحها ولعنها ، المناخ : المنزل وهو تمييز .

فتىً كالسّحابِ الجَون يُخشَى ويُرتجى بيّنه بقوله :

يُرجَى الحَيَا منها وتُخشَى الصَّواعق !

" وماقتل الأحرارَ كالعفو عنهمُ ● ثم أبدى أسفه بقوله :

ومن لك بالحرّ الذي يحفظُ اليدَا !

ولايرضى أبو الطيب في بعض الأحيان بتفسير واحد بل يُعزِّزه بثانٍ فمن ذلك قوله :

رحلت فكم باكٍ بأجفان شادنٍ ● عليّ وكم باكٍ بأجفان ضيغم

هو لم يكتف بهذا التعبير ، بل زاد عليه إيضاحاً فقال :

وماربّة القُرطِ المليح مكانه ● بأجزعَ من ربّ الحُسام المُصمّمِ

مثال آخر قوله :

الرأي قبلَ شجاعةِ الشُّجعان ● هو معنىً شائع يحُسّ به كلُّ الناس حتى العامة والسوقة فالفضل للشاعر هنا أنه ألبسَ هذا المعنى المتداول أجمل ما يمكن من اللفظ مع السهولة والوضوح والإيجاز والسلاسة ، ولوكان وقف عند هذا الحد لما طالبه أحد بمزيد ، ولكن الصنعة –صنعته الخاصة– حكمتْ عليه كما يقولون ، فظهرت طريقته في المشي والتفسير والتوضيح والتعليق والحواشي مما رأيناه متفرقا في الأمثلة المقدمة فقال :

الرأي قبل شجاعة الشُّجعان ● هو أولٌ وهيَ المَحلُّ الثّاني

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرّةٍ ● بلغتْ من العلياء كلَّ مكانِ

ولربما طعن الفتى أقرانه ● بالرأي قبل تطاعُن الأقران

لولا العقولُ لكان أدنى ضيغم ● أدنى إلى شرفٍ من الإنسان

فأبو الطيب يجيء بالقاعدة ثم يشرحها ويعلق عليها بما يشاء لكنه في بعض الأحيان يفعل العكس أعني أنه يعرض أفكاراً متعددة وتشبيهات مختلفة ثم ينتهي منها إلى قاعدة تسير في الناس مسير الأمثال من ذلك قوله:

عجبتُ لمن له قدٌّ وحدٌّ ✽ وينبو نبوةَ القضِمِ الكَهَامِ
ومن وجد الطريق إلى المعالي ✽ فلا يذرُ المَطيَّ بلا سَنَامِ
ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً ✽ كنقصِ القادرين على التَّمامِ

وقوله عندما سمع بأن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب:

يامن نُعيتُ على بعدٍ بمجلسه ✽ كلٌّ بما زعم الناعون مُرتَهَنُ
كم قد قُتلتُ وكم قد مِتُّ عندكمُ ✽ ثم انتفضتُ فزال القبر والكفنُ

أي أن كل إنسان مرتهن بالموت فلا يفرح أحد بنعي الآخر .. إلى أن قال :

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركُهُ ✽ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ
رأيتكمْ لا يصون العرضَ جاركمُ ✽ ولا يدرُّ على مرعاكمُ اللَّبَنُ

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد: أنَّ الصاحب بن عباد – وهو من ألدِّ خصوم المتنبي – مات له ولد وانهالت عليه آلاف التعازي من مختلف الأنحاء وكان كلما افتضَّ رسالة منها ليقرأها وجدها مصدرةً بهذين البيتين من شعر المتنبي في رثائه لأخت سيف الدولة :

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ ✽ فزعتُ منه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع صدقه أملاً ✽ شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرَقُ بي

فلما حضر إليه أحد المعزين من الأصدقاء وأخذ يواسيه – على عادة المجاملة في مثل هذه المواقف – قال له :والله ما ألمني مصاب الموت كما آلمني أن تُصدَّر هذه الرسائل كلها بهذا الشعر وهم يعلمون رأيي في صاحبه !

ثالثـا: ومن محاسن شعر المتنبي – في رأيي – ولوعه بالمقابلات اللفظية ، ولاعجب وهو صاحب القول المشهور: "وبضدها تتميزُ الأشياء" لقد عرف المتنبي بصياغته للجمع بين الأضداد أو بالمقابلات والعكسيات : فهو إذا قال أبيض [1] فلا بدّ أن يتبعه بأسود وإذا قال جَنّة فلا محالة من أن يردفها بجهنم حتي لكأن هذه المقابلة فرض حتم يأثم إذا تركها :

(فالليلُ)حين(قدمت)فيها(أبيضٌ) ◆ (والصبحُ)منذ(رحلت)عنها(أسود)
وخفوقُ قلبٍ لو رأيتِ لهيبَه ◆ يا(جنتي)لرأيتِ فيه (جهنما)
أبداً(تسترد) ما (تَهَبُ) الدُّنيا ◆ فياليت(جودَها)كان(بخلا)
وإذا أتتك مذمّتي من (ناقصٍ) ◆ فهي الشهادة لي بأنيَ (كامل)
سبحانَ خالق نفسي كيف(لذّتها) ◆ فيما النفوس تراه غايةَ (الألم)
كأن الحزن مشغوف بقلبي ◆ (فساعةَ هجرها)يجد(الوصالا)
[أزورُهم][وسواد][الليل][يشفع لي] ◆ (وأنثني)(وبياضُ)(الصُّبح)(يُغري بي)

وأحيانا يجيء المتنبي بالمعاني على عكس ما هو معروف عند الناس - فالمشهور أن الرأس أشرف أعضاء الإنسان ولكنه يعطي هذه المكانة للأقدام ،فيقول :

خيرُ أعضائنا الرؤُوس ولكن ◆ فضلتْها بقصدِك الأقدامُ

ويقول وهو يمدح بدر بن عمار وهو يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٣هـ :

قتلتَ نفوسَ العدى بالحديـ ـد حتى قتلتَ بهنّ الحديدا

ويقول :

إذا ترحّلتُ عن قومٍ وقد قدروا ◆ أن لا نفارقهم فالرحلون هـمُ
في جحفلٍ ستر العيونَ غبارُهُ ◆ فكأنما يبصرن بالآذان .
فوق السِّماك وفوقَ ما طلبوا ◆ فإذا أرادوا غاية نزلوا

[1] أبو الطيب المتنبي لمحمد كال حلمي ص/٢٨٣ .

رابعاً: ومن الأسباب التى خلّدت شعر أبى الطيب (نظمه للحكمة)

فقد عرف بالشاعر الحكيم الذى يصوغ من خلاصة تجاربه ومعاناته ومحنه وصراعه مع الاحياء من حوله ، هذا هو المتنبى الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب فى كثير من شعره ، وأكثر من ذلك فقد صارت بعض أشعاره تجرى فى الناس مجرى الأمثال ، وتعبّر أصدق تعبير عن كثير من الأمور والأحوال وهذه بعض النماذج والأمثال :

ماكلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركه ● تجري الرياحُ بما لاتشتهي السفُن
ذلَّ من يَغبِط الذليلَ بعَيش ● رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمَـــامُ
من يَهُن يَسهُل الهوانُ عليه ● ما لجرُحٍ بميّتٍ إيـــلامُ
إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكته ● وإنْ أنت أكرمتَ اللئيـــم تمرّدا
ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى
● مُضرٌ كوضع السّيف في موضع الندى
ومن نكدِ الدنيا على الحرّ أن يرى
● عدواً له ما من صداقته بـــدُّ
وإذا كانت النفوسُ كِبَـــارا ● تعبتْ في مُرادها الأجســـامُ
واحتمال الأذى ورؤية جانبـــه غذاءٌ تضوى بـــه الأجســـامُ
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ● وأخو الجهـــالة في الشقاوة ينعـــمُ
ومن البلية عذلُ من لايرعوي ● عن جهله وخطابُ من لايفهـــمُ
ومن العداوة ما ينالك نفعُـــه ● ومن الصداقة ما يضرُّ ويؤلـــمُ
إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه
● وصدّق ما يعتاده من توهّـــم

ومن الأشعار التي جرت في الناس مجري الأمثال ، وحفظتها معظم الأجيال قوله في شطرات أبياته :

● ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيّــدا ●

●وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد●
●ليس التكحّل في العينين كالكحل●

ومن الأمثال الجيّدة قوله:-

●مصائب قوم عند قوم فوائد●
●الجوع يرضي الأسودَ بالجيَف●
●رب عيش أخفُّ من الحِمام●
●وبضدّها تتميَّز الأشياء●
●ولابدَّ دون الشهد من إبر النحل●
●العبد ليس لحرّ صالح بأخ●
●وبعض العذر تفنيد●
●لاتشترِ العبد إلا والعصا معه●

●●●●●●

أبو الطيب المتنبي في مصر:

بعث كافور الإخشيدي برسالة إلي دمشق يستدعي بها المتنبي ليحظى بقلائد شعره ، فلما قدم رحب به قائلا :أهلا بشاعر العرب أهلا بأبي الطيب لقد أبطأت علينا كثيراً والدولة لا تكمل عظمتها إلا بمثلك إنك ستكون في ضيافتي ، وأرجو أن تطيب لك الإقامة ، ثم أعطاه عشرة آلاف درهم بعد أن مدحه بأول قصيدة ، وظل في صحبته أربع سنوات ثم غادر مصر إلي الكوفة بعد وقيعة الحاقدين بينهما حتى هجاه [1]

---

[1] الشاعر الطموح لعلي الجارم بك ص٧٠ ط دار المعارف

كافور الإخشيدي من هو؟

هو عبد أسود كان مملوكاً لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عيّاش يستخدمونه في مصالح السوق ، وقد وهبه بنو عياش لغلمان بن طغج ، فلما مات سيده أبو بكر بن طغج وولده صغير ، وأخذت البيعة له ، وتفرد كافور بخدمته وبخدمة أمه ، فقرّب من شاء ونحّى من شاء ونظر إليه الناس من صغر همّهم فتقرّبوا إليه وسعى بعضهم ببعض حتى صار رب الدار لا يأمن أهله على الشراب بما ينويه لكافور ففزع منه كافور فدسّ له السّم ، وخلت له الدار ..!

وكان كافور أسود اللون فاحم السواد قصير القامة مترهّلٌ اللحم منتفخ البطن ضخم الجمجمة أفطس الأنف مثقوب الشفة السفلى واسع العينين ، تنبعث منهما ومضات فيها الدهاء وفيها مكر وخداع ، بيد أنه كان ذكياً شجاعاً حازماً وكان محباً للأدباء والعلماء يصادقهم ويقربهم وكانت تقرأ عنده كل ليلة سير الأنبياء ، وقد حزّ في نفس أبي الطيب أن يمدح ذلك العبد الحبشي ويترك سادات العرب لا يجدون لمحامدهم ناشراً إلا أن هناك أملاً يداعبه عند كافور الذي أغراه بالولاية ، فالمتنبي يصف لابنه محسّد كافورا ومجلسه فيقول :

. دخلتُ يا بنيَّ على أمةٍ حُبلى يسجد أمامها صناديدُ الأبطال ، فوق عرشه فرأيت قردا في ثياب أمير عيناه عينا ثعلب إطراقه إطراقُ

ثعبان إلى أن يقول : سحقاً لهم وسحقاً للزمان الذي قذف بي إليهم ، والله لكأني أشعر أني جلست لأهجوهم لا لأمدحهم .. إن مدح الأسود سيخلق في الشعر فناً جديداً أسمعت يا محسد ؟ سيُخلق (فن المديح الهجائي) .[1]

---

[1] الشاعر الطموح لعلي الجارم ص ٨٤ .

قدم المتنبي علي كافور عام ٣٤٦ –٣٥٠ ليمدحه بيد أنه كان على حذر وقد أخفى ما بداخله من ضجر ولعل هذا كان واضحا في أول قصيدة حيث كان مطلعها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا ● وحسب المنايا أن يكن أمانيا

والأمر الذي استوجب العجب أن المتنبي قد اشترط على سيف الدولة أن ينشده وهو قاعد فلما ذهب إلي العبد الإخشيدي لم يشترط عليه ذلك الشرط ، ولعل هذا ما دعا الدكتور طه حسين إلي قوله عن المتنبي : " وقد هان على نفسه ، فهانت نفسه على الناس ، ماتت نفسه أو كادت تموت حين فارق سيف الدولة هارباً من الكيد ومكر الحاشية وباع كرامته وصداقته من كافور بثمن بخس هو أن يكون والياً في ظل عبد :

يستخشن الخزّ حين يلمسه ● وكان يُبْري بظفره القلمَ

كما كان يقول في شبابه [1]

ولما تناثرت آمال المتنبي كما تتناثر أوراق الزهرة الذابلة واحدة واحدة وجد اليأس طريقا إلي قلبه فأيقظ فيه الأحقاد والأضغان والأحقاد وأجاش صدره بالمعاني الغضبية التي بقيت تذكاراً مؤلما عن إقامته بمصر كقوله:

وكم ذا بمصرَ من المضحكات ● ولكنه ضحكٌ كالبُكا

وقال : ومصر لعمري أهل كل عجيبة .. على حد قول المؤرخ اليوناني القديم هيرودت " مصر بلاد العجائب "

ويقول المتنبي عن الدين في مصر وهو يهجو كافورا :[2]

أغاية الدِّين أن تُحفوا شواربكم ● يا أمة ضحكتْ من جهلها الأممُ

---

(1) مع المتنبي د/ طه حسين ص٨٦.

(2) لحفي شاربه بالغ في قصه يقول لأهل مصر : لاشيء عندكم من الدين سوى إحفاء الشوارب حتى ضحكت من جهلكم الأمم بطاعتكم لهذا الأسود؛ الديوان ص٥٠٢ ط دار بيروت ١٤٠٣–١٩٨٣م .

هذا ما تركه شاعرنا لمصر بالذات وما تركه لكافور من الأهاجي التي لا تفنى والتي خرج بها على الأدب ، وغطّت على محاسنه التي أجاد فيها أيّما إجادة مدة إقامته بمصر (١) .

●●●●

المتنبي بين مدحه وهجائه لكافور:

إن قدرة المتنبي على جمعه بين المتناقضين راعت الأبصار وأدهشت العقول ، فقد قبل دعوة كافور له ، وقد حز في نفسه أن يمدح ذلك العبد الحبشي ويترك سادات العرب الآن هناك أملا يداعبه عند كافور الذي أغراه بالولاية فمدحه بثمان قصائد أنشده أولاها في جمادي الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وهي البائية التي يقول في مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ● وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وفي شوال سنة ٣٤٧هـ كانت آخر مدائحه البائية التي مطلعها:

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ ● وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجبُ

وعدّتها تسعٌ وأربعون بيتاً ومنها قوله :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدةً ● فلا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ (٢)

وبي ما يذودُ الشعرَ عنّي أقلّه ● ولكن قلبي يا ابنة القوم قلّبُ (٣)

وأخلاق كافور إذا شئتُ مدحه ● وإنْ لم أشأ تُملي عليّ وأكتبُ (٤)

إذا ترك الإنسانُ أهلاً وراءهُ ● ويمّم كافوراً فما يتغرّبُ (٥)

---

(١) أبو الطيب لمحمد كمال حلمي ص٦٠

(٢) ألا حرف استفتاح وتنبيه ، ليت شعري : ليت علمي ، وأشتكي وشكا بمعنى ، والتعتب والتعاتب والمعاتبة : تواصف الموجدة ومخاطبة الإدلال.

(٣) يذود: يدفع ويطرد ، وقلّب : أي بصير بتقليب الأمور والتصرف فيها .

(٤) أملى يملي وأمليت له : أي قلت له فكتب عني .

(٥) أهل الرجل:عشيرته وأهل الرجل زوجته ، ويمم: قصد ، وتغرب واغترب بمعنى واحد .

فتىً يملأ الأفعالَ رأياً وحكمـــةً * وبادرةً أَيّانَ يَرضَـي ويَغضَـبُ[1]
إذا ضربتَ بالسيفِ في الحربِ كفُّه * تَبيَّنتَ أنَّ السيفَ بالكـفِ يضـربُ
تزيدُ عطـاياهُ علي اللَّبثِ كـثرةً * وتَلبثُ أمـواهُ السمـاءِ فتَنْضـبُ[2]
يـريدُ بك الحسادُ ما اللهُ دافـعٌ * وسمرُ العَوالـي والحديـدُ المزرَّبُ[3]
وكلُّ امرئ يولي الجميلَ مُحبَّبٌ * وكلُّ مكانٍ ينبتُ العـزَّ طـيّـبُ
ودون الذي يبغونَ مالوتخلَّصوا * إلي الموت منه عِشتَ والطفلُ أشيبُ[4]
إذا طلبوا جدواكَ أعطوا وحكموا * وإن طلبوا الفضلَ الذي فيك خُيِّبوا
ولو جازَ أن يحْوُوا علاكَ وهبتَها * ولكن من الأشياءِ ما ليسَ يُوهـبُ
ثم يقـول :
وأنت الذي ربَّيتَ ذا المُلكِ مُرضَعا * وليـس لـه أمٌّ هنــاك ولا أبُ
وكنتَ له ليثَ العرينِ لشبلِـهِ * وما لكَ إلا الهِنـدوانيُّ مِخلَبُ[5]
سـللتَ سيوفًا علمتْ كلَّ خاطـبٍ * علي كلِّ عودٍ كيف يَدعو ويَخطبُ[6]
ويغنيكَ عمّا ينسبُ الناسُ أنّـه * إليـكَ تناهي المكرماتُ وتُنسبُ[7]

---

(1) الفتى :الشاب ، والسخيُّ: الكريم _ والرأي : العقل والحكمة :تطلق على الحلم والعدل والعلم ، والبادرة: البديهة وأيَّان : أي حين .

(2) اللبث بالفتح والضم :المكث وأمواه :جمع ماء وأصله مَوَه بالتحريك وأمواه جمع قلة ومياه جمع كثرة ، ونضبت الماء :غارت وفنيت ..

(3) العوالي : جمع عالية وهي أعلى الرمح أو رأسه أو النصف الذي يلي السنان ، والحديد المزرَّب: المحدد والمراد السيوف والمعنى : يريد بك حسادك السوء والله يدفعه عنك والرماح والسيوف .

(4) يبغون : يطلبون ، ما مبتدأ مؤخر خبره دون أي دون ما يطلبون من زوال ملكك أهوال فلو تخلصوا منها إلي الموت لبقيتَ أنت وشابت أطفالهم من شدة ما يرون من الهول .

(5) الليث: الأسد ، والعرين: مأوى الأسد ،والشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد ، والهندواني :السيف المصنوع من حديد الهند، أي أن الأسد يحمي شبله بمخالبه وأنت حميته من الأعداء بسيفك .

(6) سلَّ السيف وأسلّه: أخرجه من غمده ، والخاطب اسم فاعل من خطب ، والعود :الخشب والمراد به المنبر .

(7) نسبه نسباً ونسبة: ذكر نسبه والمكرمات: جمع مكرمة وهي فعل الكرم ، وأصل تناهي: تتناهى حذفت إحدى التاءين أي تبلغ نهايتها ، وأنّه وخبرها فاعل يغنيك .

وأيُّ قبيلٍ يستحقك قدره ● معدُّ بن عدنان فذاك ويعرُبُ [1]
وما طربي لما رأيتك بدعة ● لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ[2]
وتعذلني فيك القوافي وهمّتي ● كأني بمدح قبل مدحك مذنبُ[3]
ولكنه طالَ الطريقُ ولم أزلْ ● أفتّشُ عن هذا الكلام ويُنهبُ[4]
فشرّق حتى ليس للشرق مشرق ● وغرّب حتى ليس للغرب مغربُ [5]
إذا قلته لم يمتنع من وصولهِ ● جدارٌ معلّى أو خباءٌ مُطنّبُ[6]

تحليل وتعليق :

– ١ –

تطالعنا الأبيات من أول وهلة بنفس كبيرة امتزج الفخر بدمها ، ! فالشاعر برغم ما يعانيه من لوعة وأسى على أيام نعمة وسعادة قد ولت إلا أنه واسع الصدر صاحب قلب يتصرف ، ونفس تملك الحيلة ؛ ولذا فهو يمضي إلى قرض الشعر متعاليا على الهموم

---

[1] القبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعدا ، ومعد بن عدنان أبو العرب ، ويعرب بن قحطان أبو اليمن ، يقال : إنه أول من تكلم بالعربية والمراد : أن كانوا أعلى قدرا من كل قبيل .

[2] الطرب محركة : الفرح والحزن من أسماء الأضداد أو هو خفة تلحقك تسرك أو تحزنك ، والبدعة : الحدث في الدين بعد أن كمل أو ما استحدث بعد النبي ﷺ .

[3] العذل: الملامة ، والهمّة بالكسر والفتح ما هُمّ به من أمر ليفعل

[4] يقول : طال تنقلي في البلاد حتى وصلت إليك ولم أزل في مديحي فينهب .

[5] التشريق : الأخذ في ناحية المشرق والتغريب: الأخذ في ناحية المغرب ، يقال: شتان ما بين مشرق ومغرب ، أي سار كلامي شرقا حتى انتهى إلى حيث لاشرق ، وغرّب حيث لاغرب !

[6] جدار معلى : أي مرفوع ، والخباء : ما أقيم على عمودين أو ثلاثة من وبر أو صوف ، والطنب : بضمتين حبل الخباء ، والمطنب: المشدود بالأطناب وهي حبال تشد بها أوتاد الخيمة والمراد: أن شعره قد سار في الأرض حتى عمّ سكان المدن وسكان الخيام .

والنوائب .. ثم انتقل إلي الغرض من الأبيات وهو: **مدح كافور** ، فعرض لأخلاقه في أربعة أبيات ، هي تعداد لمناقب كافور منها مـا يعود لجوده ، ومنها ما يعود لعقله وحكمته ، ومنها مـا يعـود لشجاعته ، فهو الكريم المؤنس بعطائه وهو أهل لكل مغـترب يقصده ، وهو البصير بأمور ملكه وهو الشجاع الذي يوقع الضـرب بكفه لا بسيفه ، وإذا تأخر على العفاة عطاؤه زاد سخاؤه على حين أن الماء إن طال مكثه في الأرض نضب وفني ، وهي مناظرة طريفة على كل حال !

ثم يعرض للحاقدين على كافور في بيتين يوضح فيهما أن الحسد وإن كان يعني تمني زوال ملكه فلن يحدث هذا أبداً لأن الله سيدفع عنه وهو معه على أعدائه ، حتى لو خلصوا من الموت فسيريهم كافور من الأهوال ما يشيب الطفل ، وهو اقتباس من القرآن [1]

ثم يعود إلي مدحه ليؤكد الكرم فيقول : إنهم لـو تعلقوا بفضلك لن يدركوه ولو كانت العلا توهب لوهبتها ، (ولكن من الأشياء ما ليس يوهب) فالجديد هنا في هذا الصدد أنه أكد المدح بتلك الحكمة الرائعة !

ثم انتقل إلي قصة الملك: الذي رعاه كافور ، لقد ربّى ولـيّ العهد حيث مات والده فقام بحفظ المُلك فكان ليثـاً والغلام شبلاً والملك عريناً ، وقد حمى العرين بسيفه المهند ، وسلّ سيوفاً لأذعن لها الأعداء ، فدانت له البلاد !

ثم انتقل إلي نسب كافور ليرفع ذلك العبد الحبشي إلي درجة تتناهى إليه المكرمات ، فهو غنيٌ عن النسبة لقبيلة أو عشيرة وهو أجلّ من أن ينتمي لجماعة اليمن (معد بن عدنان ويعرب بن قحطان) – وهما أصل العرب واليمن – فداءه ؟ !!

---

(1) وهو قوله تعالى : " يوماً يجعل الولدان شيباً " المزمل/ ١٧

ثم ينوّه بفرحته (أو طربه)الذي يستخفه عند رؤية كافور ، ولطالما تمنّى رؤيته !!

ثم يتحدث عما كان ينظمه من مدح قبل صلته بكافور ، إن قوافيه تلومه على مدح غير كافور ، وإن همته تعزله إن قنع بغيره من الملوك فهو كمن أتى ذنبا فجاء ليعتذر ببُعد الطريق ، وهو الذي يَعُدُّ الشعر ويجيده فتسرقه الشعراء وتقبل علي روائعه العشاق ؛ ولذا فشعره يصل إلي الآفاق فيملأ الدنيا _ باديها وحضرها علي السواء !

-٢-

عُرف المتنبي بالإبداع واختراع المعاني وتوليدها ، كما عُرف بجنوحه إلي الالتواء والإغراب ، بيد أن أفكاره هنا جاءت- في معظمها-واضحة سهلة وكأنه راعى (مقتضى حال المخاطب) إلا في القليل النادر الذي يحتاج إلي رويّة وإعمال فكر ، خذ مثلاً قوله:

إذا ضربت بالسيف في الحرب كفّه * تبيّنت أن السيف بالكف يضربُ

وقوله أيضا :

ودون الذي يبغون مالو تخلصوا * إلي الشيب منه عشت والطفل شُيّبُ

فمعنى البيت الثاني : أن الذي يريده الحساد دونه الموت الذي لو تخلصوا منه إلي الشيب عشت وشاب طفلهم مما يرونه من الهول !

ووضوح الأفكار هنا قد تصل به إلي حد السذاجة كما في قولـــه :

وماطربي لما رأيتك بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فأطربُ

فهو ينفي أن يكون طربه حدثا وقد كان يرجو أن يراه فيطرب لرؤيته فإذا ما علمنا أن الطرب خفة تلحقه لرؤيته علمنا أيضا أنه جعله شيئا يضحك أو قردا تستملح حركته فهو تصوير سطحي ،

واستهزاء لا محالة ، مع أن الشاعر في مقام مدح ، ولا أدلّ على ذلك من قوله لما وقعت بينهما جفوة : (١)

ومثلك يُؤتى من بـــــلاد بعيـــدة   ليُضحك ربّات الحداد البواكـــيا!

– ٣ –

والأبيات فيها تقليد لبعض السابقين فقوله مثلا :

إذا ضربت بالسيف في الحرب كفّـــه   تبيّنت أن السيف بالكف يضـــرب

هو تقليد لقول البحتري :

فلا تُغليـــن بالسيف كـــل غلائـه   ليمضي فإن الكفَّ لا السيفَ يقطعُ

وقوله :

ولو جاز أن يحووا عُلاك وهبتـــها   ولكن من الأشيـاء مـا ليس يوهب

هو من قول أبي تمام :

وانفح لنا من طيب خيمــــك نفحة   إن كانت الأخلاقُ ممّا يُوهَـــبُ

وقول المتنبي :

إذا تـرك الإنســـان أهـــلا وراءه   ويمّـم كـــافورا فما يتغـــرّب

هو من قول الطائي :

هم رهط مَن أمسى بعيـــدا رهطه   وبنو أبي رجل لغيـــر بنـــي أب

وقول المتنبي :

ويغنيك عمـــا ينســـبُ الناسُ أنـه   إليك تناهى المكرمــات وتنســب

هو من قول أبي طاهر :

خلائقـــه للمكرمـاتِ مناســبٌ   تناهى إليـها كلُّ مجــدٍ مؤثّلُ

وقوله :

وتحتلني فيـــك القـــوافي وهمّتي   كأني بمـدحٍ قبل مـــدحك مذنب

هو من قول أبي تمام :

وهل كنت إلا مذنبًا يوم أنتحـــي   سواك بآمـــالي فجئتك تائبـــا

---

(١) الديوان ص/٥٠١ ط دار بيروت .

وقولــه :

فشرّق حتى ليس للشرق مشرقٌ ● وغرّب حتى ليس للغرب مغرب

هو من قول حبيب:

فغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ ● وشرّقت حتى قد نسيتُ المغاربـــا

— ٤ —

هل الأبيات تدل على أن القائل هو المتنبي ؟

وارتباط الأبيات بقائلها : واضح وانعكاس الشخصية على القصيدة ظاهر جلي ، فهو ذو أمل تقف دونه الحساد حتى لايقول الشـعر إلا عاتيا وهو ذو حيلة وتصرف فلا تصدُّه النوازل عن قرض الشعر وهـو صـاحب القريض الذي ذاع صيتـه وطـار حتـى إنـه لم يـدع حضراً ولابادية !

بيد أن الشـاعر أسرف وبـالغ حين زعم أن الممـدوح سما علـى الأنساب حتى لا يُرى قبيل يستحق أن ينسب الممدوح إليـه ، وأن معد بن عدنـان ويعرب بن قحطـان فداءه ، وعلـى كل حـال هـي مبالغات مقبولة مادامت لا تمس العقيدة والإسلام .

هل الأفكار ذاتية أم إنسانية ؟

والأفكار: ذاتية بحتة لا تمت إلى الإنسانية بصلة ، فهـو يخلـع على ممدوحه صفات الكمال ليظفر منه بغُر الآمال وحسبه أنه نوّه بآماله في هذه القصيدة حين قال :

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله ● فإنّي أغنّي منـــذ حيـــن وتشربُ

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولايـــة ● فجودك يكسوني وشغلك يسلبُ

ما حكم على عاطفة الشاعر ؟

وعاطفة الشاعر واضحة الكذب إذ أنها عاطفة رغبة وطلب ، أما ما يهزّنا ويثير انفعالنا عقيب القراءة إنما هو من أثر الصنعة لا من

صدق العاطفة ، فالشاعر متلهف على أمل يرقبه ، حريص على اليوم الذي ينظم فيه شعراً خالياً من الشكاية والعتب ، ولذا فهو يمدح كافوراً على كرمه الذي يجعل العُفاة حكاماً فيما يطلبون من أجل هذا كانت صوره البيانية على غير مستواه الذي عرف به من استعمال الكنايات الرائعة والمجازات الفائقة والتمثيل المحكم ، وما ذلك إلا صدى لنفسيةٍ لاهثةٍ لم تجد راحتها أو أملها عند ممدوحها ، ولعلنا نثق من كذب العاطفة واضطراب نفسيته إذا علمنا أن الشاعر قد ناقض نفسه فهجا كافوراً هجاءً مقذعاً وذلك لمّا لم ينل شيئاً مما كان يؤمله في كافور . ما الدليل على ما تقول ؟

وجاءت أفكاره _ بالطبع _ ممزقة النسج حرة لم تخضع لترتيب فما يجئ منها بالكرم يجوس خلاله وصفٌ بالشجاعة ووصف بالرأي فهو بعد أن وصفه بالكرم وبأنه أهل لكل مغترب خلص إلى أنه شجاع مقدام يضرب بكفه لا بالسيف .. وبعد هذا الاستطراد عاد ثانية ليصف الممدوح بالكرم فهو من جوده بحيث يعطي العفاة ويجعلهم حكاماً فيما يطلبونه وهذا دليل على نفسية مضطربة

بما تحكم على الأسلوب ؟ - ٧ -

وأسلوب المتنبي هنا قد جنح إلى المبالغات كثيراً ، وأسرف في المجازات ، ومن ذلك ما زعمه من أن ممدوحه سما على الأنساب ، وأن أخلاقه هي التي تُملي على الشاعر فيكتب وأنه أسد ، والغلام الإخشيدي شبل ، والملك عرين وأن السيوف تعلم الخاطب كيف يدعو وسيخطب ، والجدار المعلى يكني به عن الحضر والخباء المطنب يكني به عن البادية ، ومن ذلك أن شعره يشرق حتى لا مشرق للشرق ويغرب حتى لا مغرب للغرب وهو كذلك نافذ إلى كل حاضرة وبادية من حيث لا يمنع وصوله الجدار المعلى أو الخباء المطنب فأسلوب الشاعر – مع هذا – قوي جزل ويؤكد ذلك قدرته على ما ذكره من مجازات وكنايات هي صنعة شاعر فحل بلغ بشعره الغاية واستحق به الخلود والقارئ يحس بجرس الأبيات ولحن متلائم لا قلق فيه ولا نشوز وهذا ما أثار انفعالنا وان كانت

قد خلت من البديع اللهم إلا ما جاء عفو الخاطر كهذه المطابقة في قوله :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق ✻ وغرب حتى ليس للغرب مغرب

وحول قول المتنبي :

وما طربي لما رأيتك بدعة ✻ لقد كنت أرجو أن أراك فأطربُ

يعلق أبو بكر الكندي – وهو من علماء تلك الحقبة – مُخاطبا حلقة من الطلاب فيقول : أرأيتم شاعرا منذ أن قال امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ✻... قال لممدوحه :

إنني أعجب لطربي عند رؤيتك أيها الأمير لأنني كنت أؤمل أنني سأملأ الدنيا ضحكا حين أراك إن المتنبي أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرّج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك – جزاه الله بما يستحق – جعل من أميرنا قردا تتزاحم الناس عليه ليروا ألاعيبه فيطربوا ويضحكوا ، وهنا أغرق القوم في الضحك والجلبة ، ثم قال أبو بكر :

من علم هذا الشاعر العربية حين قال :

لقد كنت أرجو أن أراك فأطربُ ✻ فيرفع الفعل (أطرب) وهو منصوب لا مناص ، لأنك إذا جعلت الفاء عاطفة وجب نصبه بالعطف على أراك ، وإن جعلتها للسبب وجب نصبه بأن مضمرة ، فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه ؟ فصاح طالبٌ قائلا : قد يكون الفعل معطوفا على أرجو وهو مرفوع وهنا قهقه الشيخ حتى سقطت عمامته وهو يقول : هذه حيلة العاجز يا ولدي لأن الطرب مترتب على الرؤية لا على الرّجاء [1]

<u>هجاؤه لكافور :</u>

وبعد هذه الفسحة العقلية الممتعة نعود ثانية لنرى كيف استطاع المتنبي أن يهجو كافورا بعد أن تناثرت آماله وفسد ما بينهما من

---

[1] الشاعر الطموح ، علي الجارم ص/ ١٣٥ .

وذو وصفاء ، نعود لنرى كيف استطاع المتنبي أن يناقض نفسه وأن ينتقض معانيه وهو في كلا الحالتين بارع مفتن !

لقد هجا صاحبه فكان مما قال :

إني نزلتُ بكذابينَ ضيفهمُ ● عن القرى وعن الترحال محدود[1]
جود الرجالِ من الأيدي وجودهمُ ● من اللسان فلا كانوا ولا الجود
مايقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهمُ ● إلا وفي يده من نتنها عُودُ[2]
من كلّ رخوٍ وكاء البطن منفتقٍ ● لا في الرجال ولا النسوان معدودُ[3]
أكلما اغتال عبدُ السوء سيّدَه ● أو خانه فله في مصرَ تمهيد ؟
صار الخصيُّ إمام الآبقين بها ● فالحُرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبودُ[4]
نامتْ نواطيرُ مصر عن ثعالبها ● فقد بشمْنَ وما تفنى العناقيدُ[5]
العبدُ ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ ● لو أنه في ثياب الحُرِّ مولود
لاتشترِ العبد إلا والعصا معه ● إن العبيد لأنجاس مناكيد[6]
ما كنتُ أحسبني أبقى إلى زمنٍ ● يسيءُ بي فيه كلبٌ وهو محمود
ولا توهمت أنّ الناس قد فُقِدوا ● وأنّ مثل أبي البيضاء موجود
وأن ذا الأسودَ المثقوبَ مشفرُه ● تطيعه ذي العضاريطُ الرّعاديد[7]

---

[1] قرى الضيف : الإحسان إليه ويقال : قرى وقراء .

[2] يقول : إن أرواحَهم منتنة من اللؤم ، فإذا همَّ الموتُ بقبضها لم يباشرها بيده تقزُّزاً أي عافتها من نتنها بل يتناولها بعود كما تُرفع الجيفة

[3] الرّخو : مثلثة : الهش من كل شيء ، والوكاء : رباط القربة وغيرها ، والمنفتق: الموسّع لكثرة لحمه ، كأنه انفتق وانشق ومعدود بالرفع أي لا هو معدود في الرجال ولا في النساء .

[4] الآبق : الهارب من سيده ، والاستعباد : اتخاذ الشخص عبداً .

[5] الناطر والناطور : حافظ الكرم والنخل أعجميّ والجمع : نواطير ونطار ونطراء وبشم:اتخم من كثرة الأكل وأراد بنواطير: مصر سادتها وأشرافها وبثعالبها : العبيد والأراذل وبالعناقيد الأموال .أي كلما أكلوا شيئاً أخلف لهم غيره .

[6] المناكيد جمع منكود : قليل الخير يعني لا يصلح إلا على الضرب والإهانة أي أني مضطر إلى حمده مع إساءته إلي .والنجاسة هنا مستعارة لسوء الخلق

[7] المثقوب المشقوق ، والمشفر من البعير : كالشفة من الإنسان والجمع مشافر وقد يستعمل في الناس ، والعضاريط جمع عُضْرُوط كعصفور وهو التابع أو الأجير الذي يخدم بطعام بطنه ، والرعاديد : جمع رعديد وهو الجبان .

جوعان يأكل من زادي ويمسكني ● لكي يُقال عظيم القدر مقصودُ
من علّم الأسود المخصيّ مكرُمةً ● أقومُه البيض أم آباؤه الصِّيدُ[1]
أم أذنُهُ في يد النخّاس داميةً ● أم قدرُهُ وهو بالفلسين مَردودُ[2]
أولى اللئام كويفيرٌ بمعذرةٍ ● في كل لؤم وبعضُ العذر تفنيدُ[3]
وذاك أن الفحول البيضَ عاجزةٌ ● عن الجميل فكيف الخصية السودُ؟

تحليل وتعليق:

– ١ –

لم يجد المتنبي من تذلقه جدوى ، بل وجد كافورا ومن حوله كاذبين لا يحسنون إلي ضيفهم ، ولا يمكنونه من الرحيل عنهم ، وأن إكرامهم للناس من ألسنتهم لا من الأيدي كما تفعل الناس ؛ ولهذا لم يجد بداً من المصارحة والتنفيس عن مكنونه ومكبوته ، وسبيله إلي ذلك هو الهجاء !

إن هؤلاء كما يختلف كرمهم عن الناس يختلف موتهم عن الناس فالموت لايقبض بيده أرواحهم تقززا لها وكراهية لرائحتها وإنما يباشرها كما تُباشر الجيف !

وإن كافورا وصحبه من الخصيان ذوو بطون مسترخية لا وكاء على ما في بطونهم من ريح ، وهم سمان كأنهم انفتقوا من كثرة

ويطلق أيضا على المرأة الرخصة الناعمة .

(1) خصي الفحل خصاءً : سلّ خصيته والخصية بالضم والكسر من أعضاء التناسل ، والبيض : الكرام ، والصيد جمع أصيد الملك ومن يرفع رأسه كبرا

(2) الأذن بسكون الذال وضمها (لغتان) والنخاس بياع الدواب والرقيق ، والدامية: هي التي تلونت بالدم ، دمي الشيء فهو دامٍ ودميت فهي دامية ، ودامية منصوبة على الحالية والباء في (بالفلسين) متعلقة بمردود وهو خبر .

(3) كويفير تصغير لكافور وتحقير من شأنه والتفنيد : اللوم والتقريع وتضعيف الرأي يقول : هو أحق اللئام بالعذر على لؤمه وهذا العذر تقريع له ثم صرح بالعذر في البيت الثاني :

اللحم وهم لايلحقون بالرجال ولا بالنساء وليس لهم شيء من مقومات هؤلاء ولا هؤلاء .
والمتنبي يستنكر ! كيف يُمهِّد الملك في مصر لعبد اغتال سيده ؟ ويعجب لأن كافورا جمع كل خصي من حوله فهو إمام الهاربين المخالفين لأسيادهم شأنه هو إذ كان مخالفاً لسيده .
ثم ينتقل إلي غفلة سادة مصر عن أمثال كافور الذين سادوا في غفلة الزمن فشبعوا حتي أتخموا من خيرها ، وعاثوا في أموال مصر فساداً وما ردّهم أحد عن عبثهم .
ثم يخلص إلى نتيجة من معاشرته للعبيد وهي : أن العبد لا يصلح لمؤاخاة الحر وإن أظهر له ودّه فهو خادع منافق كذاب ، فشتان بين خلق العبد وسيده الحر .!
وأما قوله " لو أنه في ثياب الحر مولود " فهو بمثابة الاحتراس والتأكيد ، فالعبد يستحيل أن يلائم الحر حتى لو ولد حراء وإن عومل معاملة الأحرار فطبعه غالب ونفسه ستحدثه بالغدر لا محالة من أجل هذا يقرر هذه الحكمة (لا تشتر العبد إلا والعصا معه ...)
وهو ما كان يتوقع أن يمتد به العمر إلي اليوم الذي يمدح فيه عبداً حبشياً فيكون ردُّه عليه بالإساءة والنكران ، وهو ما كان يتوقع أيضاً أن الكرام سيفقدون ليخلفهم هذا الذي كناه " بأبي الأبيض" سخرية به وازدراءً لشأنه ، وما كان يتوقع أيضا أن يكون لهذا الأسود أتباع وأعوان يصدرون عن رأيه ويدينون له بالطّاعة ...!

وأما قوله:" جوعان يأكل من زادي ويمسكني " فربما أراد أنه كان يأكل من ماله لا من مال كافور ، ولم يسمح له كافور بالرحيل ليفخر بمدحه وليقال عنه : إنه عظيم القدر يقصده المحتاجون ! أو أن الشاعر وجد نفسه لحِقّ بالملك من كافور فكأن كافوراً يأكل من زاده هو !!
من أجل هذا هو ينفي أن يكون لكافور مكرمة فما قومه من الكرام ولا آباؤه من الملوك العظام ، وكيف تنسب المكارم لحقير

الشأن سيئ الخلق قبيح النظر ما تزيد قيمته علي فلسين ..! إنه أولى اللئام بالعذر ذلك لخسة أصله وضعة قدره وهو عذر أقبح منه ثم يصرح بالعذر فيقول : إذا كانت بعض الأحرار عاجزة عن فعل المكارم ، فما بالك بالأسود الوضيع .. وصدر البيت تعريض ببعض الأمراء الذين تركهم وجاء إلي كافور !

– ٢ –

هذا نوع من الهجاء السافر ، وضرب من التقريع المباشر إذ جاءت الأفكار واضحة والمعاني كاشفة لما انطوت عليه نفس شاعرنا ولطالما لخفاه وهذا الوضوح إنما كان مرجعه لسلامة الألفاظ من التعقيد اللفظي أو المعنوي كما سلمت من كل حوشيّ مهجور إلا ما اقتضته ضرورة القافية وهو ليس بخاف علي من له بالعربية أدنى صلة كما في قوله : (أولي اللئام كويفير بمعذرة) والتقدير : أولي اللئام بمعذرة كويفير ، وكقوله :(العبد ليس لحر صالح بأخ) والتقدير : العبد ليس بأخ صالح لحر .

وواضح أن المتنبي أعطي لفكرة العبد أكثر مما تستحق من الحديث ووقف عندها طويلاً – وأنا لست معه وأراه ، يناقض نفسه –وما ذا علي العبد لو سما بنفسه وفرض نفسه علي أمته ؟ إنه –دون شك– يكون جديراً بما يصل إليه ، ولا يُضيره أصله ونسبه ، وقدنسي المتنبي أو تناسى أن تلك المشكلة مشكلته ، وأن تلك القضية قد اكتوى بنارها ، ولطالما اعتذر عن ضعة نسبه وأعلن عن مبدأه بقوله :

ولست بقانع من كل فضل * بأن أعزى إلي جدٍ همام

وغير ذلك من الأبيات التي دارت حول هذا المعنى ....! وما ذنب العبد إذا استناخت له الأمة من حوله ؟! لاشك أن دافع المتنبي هو الحمق وإن كان بينه وبين نفسه صادقا !

وإذا علمنا أن عدة القصيدة ثلاثون بيتا وأن فكرة العبد وحدها قد نالت منها عشرة أبيات علمنا مدى صدق حكمنا عليه !

- ٣ -

وفي الأبيات تقليد لبعض السابقين سواء أكان من باب توارد الخواطر أي مصادفة أو كان مقصوداً وتلك قضية أخرى ومايهمنا في هذا الصدد أنه قلد في بعض معانيه فقوله في البيت الأول:

" ضيقهم عن القرى وعن الترحال محدود "

يقول النابغة في معناه:

إلا سليمان إذ قال الإلـه لـهُ ✱ قم في البريّة فاحدُدها عن الفند[1]

وبيت المتنبي الثاني :

"جود الرجال من الأيدي وجودهمُ .. من اللسان .."

في معناه يقول أبو تمام :

وأقلُّ الأشياء محصـولٌ نفـعٍ ✱ صحة القول والفعال مريضُ[2]

وقول الطائي:

ملقى الرجاء وملقى الرحل في نفر ✱ الجودُ عندهمُ قولٌ بلا عمل

وقول المتنبي :

لاتشتر العبد إلا والعصا معه ✱ إن العبيد لأنجاس مناكيد

هو من قول بشار : " الحر يلحى والعصا للعبد "

وقول الحكم بن عبد الأسدي في الحماسة :

والعبد لا يطلب العلاء لا ✱ يرضيك شيئاً إلا إذا رُهبا

مثل الحمار الموقع الظهر لا ✱ يحسن المشي إلا إذا ضُربا[3]

- ٤ -

وارتباط الأبيات بقائلها واضح ؛ فهو الثائر على حاكم مصر والمتطاول على المصريين ، وتلك مغامرة جريئة تدل على عاطفة

---

[1] احددها : احبسها والفند : الخطأ في الرأي والقول ديوان النابغة ص ٣٣ ط المكتبة الثقافية بيروت لبنان .

[2] شرح ديوان أبي تمام شاهين عطيه ص ١٧١ ط دار الكتب العلمية بيروت .

[3] راجع ديوان المتنبي للبرقوقي ، ومن عيون الأدب د /محمد كامل الفقي .

حارة ، وهجاؤه اللاذع لكافور بعد مدح طويل إنما يؤكد ذاتية الأفكار والتصاقها بقائلها أيما التصاق فلا يعود على المجتمع منها شيء ولا تمت إلى الإنسانية أو الوطنية بسبب !

وبواعث الحقد في الأبيات واضح وبغضه لكافور أمر ظاهر وهذا ما دفعه لأن يسرف في هجائه ، وأن يبالغ في معانيه إلى حد الإسفاف حيناً أو السطحية حيناً آخر ، ومن ذلك ماادعاه من أن ملك الموت لايباشر أرواحهم بيده كعادته في قبض الأرواح وإنما يتناولها بعود حتى لايتأذى من رائحتها ، وما ادعاه أيضاً من أن بطونهم لا وكاء عليها ، وما ادعاه من أنهم لايعدون في الرجال ولا في النسوان.. !

وقد كشفت الأبيات عن الحالة السياسية في مصر ، فالسادة أصحاب الرأي في غفلة عن صالح مصر مما هيأ الفرصة للعبيد كي يسودوا في تلك الحقبة وفي غفلة الزمن ، ومصر غنية لاتفنى عناقيدها وأن الحر فيها مستعبد والعبد معبود إلى آخر ماكشفت عنه الأبيات .....!

— ٥ —

<u>وعاطفة الشاعر هنا :</u> صادقة فهو كما – ذكرنا – ثائر ساخط ، أظهر شيئاً طالما وارى عنه وأخفاه ، ويحدثنا الدكتور طه حسين هاتين الحالتين المتناقضتين فيقول : " إن صدق ما قاله في الهجاء فقد كذب ما قاله في المدح ، وإن صدق ما قاله في المدح فقد كذب ما قاله في الهجاء وهو مع ذلك صادق عندنا في الحالين بشرط أن نفهمه على وجه لا كما يجب .. فقد كان صادقاً حين مدح كافورا ، وكان كاذبا في الوقت نفسه ، كان صادقاً حين أراد المدح ولم يرد غيره ، وكان كاذباً لأنه لم يمدح عن يقين ولا عن إيمان ، وإنما مدح عن رغبة وطمع فقال غير ما يعتقد ، وأتى بغير ما يرى وهو كذلك صادق كاذب في هجائه :– صادق لأنه كان يهجو عن غضب وسخط وبغض ، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق ، ويذيع في هذا الأمر من السيئات ما كان يكتبه فيما بينه وبين نفسه إذا

خلا إليها وما أكثر الأحوال التي يفرض فيها علينا لبحث الصحيح أن نتهمَ الشعراء والمتاب فيما يتحدثون به عن أنفسهم ما دحين أو قادحين .. وليس يطلب من الشاعر حين يهجو ا، يقول حقاً إنما يطلب إليه أن يُتقنَ الإساءة إلي من يهجو ، ويبرع في التشهير به ، والتشنيع عليه فأما أن يكون صادقا أو كاذباً ، وأما أن يكون مرضيا للأخلاق أو مخالفا عن أمرها وقانونها فهذا شيء لا يعني الفن بحال من الأحوال ، وقد كذب الفرزدق علي جرير وكذب جرير علي الفرزدق وكذب غير الشاعرين عليهما وقضي لهؤلاء بالبراعة في الهجاء ".[1]

— ٦ —

وأسلوب المتنبي: هنا في أبيات الهجاء أقوى وأجزل منه في أبيات المدح ، وكذلك في صوره وكناياته ، ولعل مرجع الضعفهناك أنها كانت صدى لنفسية قلقة لاهثة لم تجد راحتها بعد ، وإذا كان الأسلوب يستمد قوته وجزالته من عاطفة صاحبه وشعوره ، فإن الغيظ والبغض الذي تلظى في صدر أبي الطيب زاد في قوة أسلوبه ، كما زاد من جزالته وحدته ، فبدا ناقماً ساخراً يثير الضحك حيناً والإشفاق حيناً آخر ، ولذلك كان المتنبي أكثر توفيقاً وإبداعاً لفنه الشعري في هجائه عنه في مدحه إذا قورن بينهما.

ويحسُ القرئ بحرك دائبين الألفاظ والتراكيب ، ويتمثل هذا فيما وفق إليه الشاعر من صور بيانية كالمجاز العقلي في (الموت يقبض ، ويستقذر ، ويعف فيفعل ذلك بعود) ، والثعالب مستعارة (للأرازل) والنواطير: مستعارة(للسادة) وفيها إشارة إلي وصفهم بالأصنام التي لا حس فيها والمجاز المرسل في العناقيد التي عبربها عن الأموال وتجسيد المعني وهو يعرض بكافور فيجسد سواد بشرته وتشقق مشفره ، وأذنه الدامية ورخص ثمنه وتفاهته ، فلوزيدعلي ثمنه فلسين لما أشتري لخسته .

(١) مع المتنبي –طه حسين ٣٠٣ – ٣٠٤ .

وأرى بعض الثقل في بعض الكلمات وكأنه مقصود ليمعن قارئها النظر في معناها كما في كلمة العضاريط ، وكويفير والتقديم والتأخير في :

(العبد ليس لحر صالح بأخ) ، (أولي اللئام كويفير بمعذرة)

<u>وبعــد:</u> فالمتنبي واحد من الشعراء الذين " إن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون " ، فهو لا يندفع للمدح إلا من وراء الأمل ، ولا ينساق للهجو إلا مع اليأس وكم في التاريخ من شعراء كانوا عشّاقاً لمن أدنوهم وغمروهم بالعطايا وأعداء لمن جفوهم ونأوا بجانبهم عنهم ومن الشعراء من كان يدخل علي ممدوحه وفي جيبه أبيات تمدح وأخري تقدح ليقدم كلا منهما في الوقت المناسب ، وأيّما كان حكمنا علي أخلاق المتنبي فلا ينسى الناقد أن ينسب له الإبداع في جولة المدح ، وجولة الهجاء ، فتلك قدرة فنية لا يصل إليها إلا من له تلك الموهبة الفائقة ـ وإن شئت فارجع البصر كرتين إلي تلك المقابلات والعكسيات التي برزّ لكل منها ، فهذا هو القائل لمَلِك مصرَ مادحاً :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحــه * وإلم أشأ تملي علي وأكتب

تزيد عطاياه علي اللّبث كثرة * وتلبث أمواه السماء فتنضب

ثم انظر إليه وهو يقول له هاجيا :

إني نزلت بكذابين ضيفهمُ * عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدي وجودهم * من اللسان فلا كانوا ولا الجود

جوعان يأكل من زادي ويمسكني * لكي يقال عظيم القدر مقصود

وانظر إليه وهو يبرر لاستيلاء كافور علي عرش مصر فيقول :

وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعا * وليس له أم هناك ولا أب

وكنت له ليث العرين لشبــــله * وما لك إلا الهندواني مخلب

ثم يأتي بنقيض ذلك ويبرر له أيضا فيقول

أكلما اغتال عبد الســـوء سيده * أو خانه فله في مصر تمهيد ؟

صار الخصي إمام الآبقين بها * فالحر مستعبد والعبد معبــود

لاتشتر العبد إلا والعصا معه ✱ إن العبيد لأنجاس مناكيـــــد
وانظر إليه وهو يعرض لنسبه ولأصله مادحاً فيقول :
ويغنيك عما ينسب الناس أنـه ✱ إليك تناهي المكرمات وتنسب
وأي قبيل يستحقك قـــدرُه ✱ معد بن عدنان فداك ويعرب
والاستفهام في البيت الثاني إنكاري أي لا يستحقك قدر قبيل من الناس فإنهم جميعا دونك
ثم يقلب المعنى تماماً ويهدمه فيقول :
ما كنتُ أحسبني أبقى إلى زمـن ✱ يسيء بي فيه كلب وهو محمود
ولاتوهمت أن الناس قد فقدوا ✱ وأن أبا البيضـــاء موجــــود
من علم الأسود المخصي مكرمة ✱ أقومه البيض أم آباؤه الصـــيد؟
أم أذنه في يد النخاس داميـــة ✱ أم قدره وهو بالفلسين مردود

أرأيت كيف استطاع المتنبي أن يناقض نفســه وينتقض معانيـه وأن يقول الشيء وضده ، وأن يبرر لكل منهما ؟ تلك هي طاقة المتنبي الشاعرية التي راعـت الأبصـار وأدهشت الفكـار وجذبت الأنظـار وهذا ما قصدناه ونحن نعرض لمعنى الشاعرية عنده

✱ ✱ ✱ ✱ ✱ ✱

صدى الهجاء وما ترتب عليه :

كان رد فعل كافور على هجاء المتنبي لـه أن حدد إقامتـه ، وسلبه حريتـه ، فتداعت عليـه العلل والكوارث وانصـرف عنـه النـاس ارضـاء للحـاكم ، ومجاملـة لذوي السلطان ! وراح المتنبـي يلـوم الحاقدين ويكشف خسة المتجاهلين ، ونفاق المرائين . وكان من أثر ذلك كله قصيدته الميمية الرائعة التي أنشأها عام ٣٤٨هـ ، وفيها يعرِّض بكافور الذي غرر به وجرَّ عليه العلل ولاسيما الحمى التي

لصابته بمصر ورغم ما هو فيه هو لايفتأ معتزا بشخصيته ، مفتخرا بنفسه وأفعاله فيقول بعنوان : من الحِمام إلى الحِمام :[1]

— ١ —

ملومكما يجل عن الملام * ووقع فعاله فوق الكلام[2]
ذراني والفلاةَ بلا دليل * ووجهيَ والهجيرَ بلا لثام[3]
فإني أستريح بذي وهذا * وأتعب بالإناخة والمقام[4]
عيون رواحلي إن حرتُ عيني * وكلُّ بُغام رازحةٍ بُغامي[5]
فقد أرد المياه بغير هاد * سوى عدي لها برقَ الغمام[6]
يُذمُّ لمهجتي ربي وسيفي * إذا احتاج الوحيد إلى الذمام[7]
ولا أمسي لأهل البخل ضيفا * وليس قرى سوى مخ النعام[8]

— ٢ —

ولما صار ودُّ الناس خِبًّا * جزيتُ على ابتسام بابتسام[9]
وصرت أشكُّ فيمن أصطفيه * لعلمي أنه بعض الأنام

---

[1] الديوان ص٤٨٢ ط دار بيروت .
[2] الملوم من يلومه الناس، وهو يعني نفسه ، ويجل : يعلو والفعال بفتح الفاء : الفعل الكريم ، فوق الكلام : فوق النقد أو الجراحات أو كلام القائلين .
[3] ذراني : اتركاني ، الفلاة : الصحراء الواسعة –مفعول معه –ووجهي : عطف على الياء من ذراني ، والهجير : حر نصف النهار معطوف على الفلاة
[4] الإشارة بذي إلى الفلاة وبهذا إلى الهجير الإناخة : النزول والمقام الإقامة
[5] الرواحل : النياق والبغام : صوت الناقة إذا قطعت الحنين ولم تمده من التعب ،الرازحة المنهكة الساقطة من التعب والإجهاد .
[6] عد البرق : إشارة إلى ما كانت تفعل العرب فإنهم كانوا يشيمون البرق فإذا لمع أو برق سبعين مرة وقيل : مائة مرة انتقلوا ولم يبعثوا رائدا لثقتهم بالمطر يقول: إنه يفعل كذلك فلا حاجة إلى دليل له .
[7] يذم له : يعطيه الذمة وهي العهد .
[8] المخ : نقي العظام (ويعرف بالنخاع) يقول : لا أمسي ضيفا للبخيل وإن لم يكن لي زاد البتة لأن النعام لا مخ له وروي مح النعام بالحاء المهملة .
[9] الخِبُّ : الخداع ، أي ابتسمت لهم كما يبتسمون لي من باب المُجاراة

يحب العاقلون على التصافي ● وحبُّ الجاهلين على الوسام[1]
وآنف من أخي لأبي وأمّي ● إذا مالم أجده من الكرام[2]
أرى الأجداد تغلبها جميعا ● على الأولاد أخلاق اللئام[3]
ولست بقانع من كل فضل ● بأن أعزى إلى جَدٍ همام[4]
عجبتُ لمن له قدٌّ وحدٌّ ● وينبو نبوةَ القضم الكهام[5]
ومن يجد الطريق إلى المعالي ● فلا يذر المطيَّ بلا سَنام[6]
ولم أر في عيوب الناس شيئاً ● كنقص القادرين على التمام

– ٣ –

أقمت بأرض مصر فلا ورائي ● تخبُّ بي المطيُّ ولا أمامي[7]
وملّني الفراش وكان جنبي ● يملُّ لقاءه في كل عام[8]
قليل عائدي سقمٌ فؤادي ● كثير حاسدي صعبٌ مرامي
عليل الجسم ممتنعُ القيام ● شديد السُّكر من غير المُدام

وزائرتي كأن بها حياءً ● فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ● فعافتها وباتت في عظامي[9]

---

(١) الوسام والوسامة حسن الصورة .
(٢) آنف : أستنكف .
(٣) اللئام : جمع لئيم وهو الدنيء الأصل الشحيح يعني :إذا لزمت الأخلاق غلبت الأصل الكريم فيكون الولد لئيما وإن كان أجداده من الكرام .
(٤) القانع : الزاهد المستكفي ، وأعزى أنسب ، وهمام : العظيم الهمة يعني: إذا لم أكن فاضلا بنفسي لم ينفعني فضل جدي .
(٥) القد : القوام والحد : البأس والقضم من السيوف: المفلول المتثلم والكهام ما لا يقطع من سيف وغيره.
(٦) بلا سنام أي مُعدة للرحيل ، والمعالي : جمع العلا والمَعلاة : الرفعة
(٧) تخب من الخبب وهو : نوع من العدو .
(٨) يريد أن طال مرضه حتى مله الفراش بعد أن كان هو يمل الفراش ولو لقيه مرة في كل عام .
(٩) المطارف : جمع مُطرَف : وهو رداء مخطط من خز أو حرير والحشايا جمع حشية وهي الفراش الذي يحشى بالقطن أو غيره .

يضيق الجلدُ عن نفسي وعنها ● فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني ● كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري ● مدامعها بأربعةٍ سجام[1]
أراقب وقتها من غير شوق ● مراقبة المشُوق المستهام[2]
ويصدق وعدها والصدق شر ● إذا ألقاك في الكرب العظام
أبنتَ الدّهر عندي كلُّ بنتٍ ● فكيف وصلت أنت من الزحام؟
جرحتِ مُجَرَّحا لم يبق فيه ● مكان للسيوف ولا السّهام
ألا ياليتَ شعرَ يدي أتُمسي ● تصرّفُ في عنان أو زمام[3]
وهل أرمي هواي براقصات ● مُحَلاة المقاود باللُّغام[4]
فربّتما شفيتُ غليلَ صدري ● بسير أو قناةٍ أو حُسام
وضاقت خطة فخلصت منها ● خلاصَ الخمر من نسج الفدام[5]
وفارقت الحبيب بلا وداع ● وودّعتُ البلاد بلا سلام

— ٥ —

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً ● وداؤك في شرابك والطّعام
وما في طبّهِ أنّي جَوَاد ● أضرّ بجسمه طول الجَمَام[6]

---

(١) السجام بكسر السين وفتحها الدمع إذا سال فهي منسكبة والمراد: مجاري الدمع الأربعة :(الموقان وهي في مقدم العين ، واللحاظان في مؤخرها) فالدمع يجري من الموقين فإذا كثر جرى من اللحاظ .
(٢) أراقب : أترقب والمشوق : المشتاق والمستهام : الهائم على وجهه في الأرض المتحير من عشق ونحوه .
(٣) العنان: لجام الفرس والزمام للإبل يقول: ليت يدي تعلم هل تتصرف بعد هذا في عنان فرس أو زمام ناقة يعني هل أتعافى وأسافر على الخيل والإبل؟
(٤)إبل راقصات أي تثير الرقص وهو ضرب من الخبب مثل القفز واللغام: الزبد يقذفه البعير من فمه أي : وهل أقصد ما أهواه بإبل هذه صفاتها ؟
(٥) الخطة : الأمر الفدام : ما يجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه يقول : وربما ضاق علي أمر فخلصت منه كما تخلص الخمر من النسيج الذي تقدم به أفواه الأباريق .
(٦) الجواد:الفرس الكريم الجمام : الراحة أي يظن الطبيب أن سبب مرضي الطعام والشراب ولا يعلم أنه من طول الإقامة والقعود عن الأسفار كالفرس الجواد إذا طال قيامة في المرابط أضرّبه

تعــــوّدَ أن يغبر في الســـــرايا ●ويدخل من قتام في قتـــــام[1]
فأمسك لا يطال له فيرعـــــي ●ولا هو في العليق ولا اللجام[2]
فإن أمرض فما مرض اصطبـاري●وإن أحُمم فما حمّ اعتزامي[3]
وإن أسلم فما أبقـــــي ولكـــن ●سلمتُ من الحمـــام إلي الحمـام
تمتع من سهاد أو رقـــــــــاد ●ولا تأمل كري تحت الرّجـام[4]
فإن لثالث الحـــــالين معنـــــيً ●سوي معني انتباهك والمنام[5]

<u>تحليل وتعليق :</u>

– ١ –

بدأ الشاعر قصيدته وهو ضائق صدراً ولذا يقول لصاحبيه اللذين يلومانه علي المخاطرة وتجشم الأسفار ف] طلب المعالي : (ملومكما) يقصد نفسه أي هو أجل من أن يلام ، وأفعاله الكريمة فوق مستوى الشبهات والجراحات

ثم تتضاعف ثورته فيعلن كراهيته للإقامة بينهم ، واستعداده لأن يضرب في جوف الصحراء المهلكة دون انتظار دليل أو رفيق يؤنسه أو يرشده فيقول : (في البيت الثاني) اتركاني مع الفلاة فإني أسلكها بغير دليل ، اتركاني مع الهجير أسير فيه بغير لثام علي وجهي (والفلاة والهجير منصوبان علي المفعولية) ثم يعلل لذلك بقوله : [فإني أستريح بذي وهذا] بالفلاة والهجير وأتعب بالإقامة والخمول !

---

(1) القتام: الغبار ، والسرايا جمع سرية وهي التي تسري إلي العدو

(2) الضمير في أمسك للجواد ، وقوله : لايطال له أي لايرخّي له الطول وهو حبل طويل تشد به قائمة الدابة ، ترسل به في المراعى .

(3) اصطباري : صبري ، واعتزامـــي : عزيمــــتي .

(4) السهاد : السهر ، والرقاد والكرى : النعاس أراد : النوم ، والرّجام الحجر الضخم يوضع علي القبر أي القبو واحده : رجم أو رجمة ومنه قول عبد الله بن مغفل : لاترجموا قبري أي لاتجعلوا عليه الرجم أي لاتسنموه بل سووه بالأرض .

(5) يريد بثالث الحالين : الموت وهو غير حال السهر والنوم .

والشاعر بعد يأسه من أمله وعدم ثقته فيمن حوله من الناس يرى اصطحاب ما هو أفضل وأوفي وأقرب إلي نفسه : منها رواحله التي يبصر بعينيها الصادقتين إن اختلط عليه الطريق وهي التي تهديه أيضاً بصوتها إن ضل مسالك الصحراء ، قال ابن فورجة : يريد أنه بدوي عارف بدلالات النجوم بالليل فيقول : إن تحيرت في المفازة فعيني البصيرة عين راحلتي ومنطقي الفصيح هو بغامها ، وهو لا يحتاج في ورد الماء إلي دليل يدله سوى أن يعد برق الغمام فيتبعه علي عادة العرب في عده بروق الغمام قال ابن الأعرابي في النوادر:" العرب كانوا إذا البرق عدوا سبعين برقة فإذا كملت وثقوا بأنه برق ماطر فرحلوا يطلبون موضع الغيث ، وأنشد عمر بن الأعور :

سقي الله جيراناً حمدتُ جوارهم * كراماً إذا عُدوا وفوق كرام

يعدون برق المزن في كل مهمة * فما رزقهم إلا بروق غمام

والمتنبي شجاع لا يحتاج إلي من يحميه ويوفر له الأمان فقد اتخذ من ربه وسيفه حامياً له فهو في كنف الله وجوار سيفه .

وهو كريم عفيف لا يحط برحله إلا علي الكرماء ويروى البيت :

(سوي مح النعام) بالحاء أي لو لم يكن لي قري إلا بيض النعام شربت ولا آتي بخيلاً أتضيّف به ، ويمكن أن نضع لهذه الأبيات السبعة عنواناً هو : (**عزّة وإباء**)

– ٢ –

ثم تهيج ثورة المتنبي الذي لا يعرف المداراة ولا المداهنة فهذا في رأيه نفاق ورياء ؛ ولذا هو يعلن عن نفسه وفلسفته الذاتية فيقول: فلما صار ودُّ الناس خبا (غير صادق) أخفيت ما انطوت عليه نفسي فإذا ابتسم لي أحدهم ابتسمت له ضجراً ، وفي الأبيات دليل يؤكد رفضه اصطحاب أحد من البشر ، فالشك أصبح يلازمه ؛ ذلك لأن البشر ينتسبون إلي فصيلة واحدة ، وهو لم يعد علي ثقة من مودة أحد حتى ممن يصطفيه لعلمه أنه من جملة الناس وبعبارة

أخرى: لعموم فساد الخلق في رأيه ، ثم يقول إن العاقل يبني حبه علي صفاء الود ، فمن أصفي له الودَّ أحبه ، أما الجاهل فهو يحب علي جمال الصورة ، وليس كل جميل النظر يستحق المحبة ، وهذا النوع من العلاقات هو يكرهه حتى ولو كان مع أخيه الشقيق ، ولا عجب في اختلاف الأخوين في الهوى ***والاتجاه فهو يبغض أخاه إذا لم يجده كريما*** والفضائل التي يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد كثيراً ما تتغلب عليها رزائل مكتسبة من فساد المجتمع ، ولربما غلب اللؤم الأصل الكريم ، يقول حكيم في هذا المعني :

أبوك أبي والجد لاشك واحد ٭ ولكننا مختلفان آس وخروَعُ

ويقول آخر :

أبوك أب حرٌ وأمك حرةٌ ٭ وقد يلد الحرّان غيرَ نجيب

ويقول آخر :

لئن فخرتَ بآباءٍ لهم شـــــرفٌ ٭ لقد صدقتَ ولكن بئس ما ولدا

من أجل ذلك كله هو لا يقتنع بأن ينسب إلي المجد عن طريق جاهٍ موروث وجدٍ معظّم فيكون بذلك عالة علي مفاخر الآباء والأجداد بل هو الفضل بنفسه ، وهو يتعجب ممن له حدُّ النصل وقدُّ الرجال ثم لا ينفذ في الأمور ولا يكون ما ضياً أي قاطعا في أمره من أجل ذلك هو يدفع بدم جديد في عروق أمته العربية وهى مبعث فخره واعتزازه

وهو يرى أنه لاعيب يشين المرء أبلغ من عيب من استطاع أن يكون كاملاً في الفضل ثم لم يعمل لذلك ، ولاعذر له في ترك الكمال إذا قدر علي ذلك ثم تركه ، ويمكن أن نضع معاني تلك الأبيات تحت عنوان : (ثورة علي المنافقين)

– ٣ –

قصة مرضه :

أما الأبيات من ١٧–٢٠ فهي تصور نفسية المتنبي بعدما سدّ عليه كافور منافذ الرجاء وللأمل فأصبح هدفاً للمرض والأوهام ثم يوضح ذلك فيذكر أن مرضه قد طال حتى ملّه الفراش بعد ما كان جنبه هو الذي يمل الفراش ويتجافاه ولو كان مرة في العام ، وقد زاد من همومه انصراف الأصدقاء عنه فهذا الصنف من الناس علي هوى ملوكهم بيد أنه يرجع موقف الناس منه إلي عظمته التي جرّت عليه الحساد ثم يعود ليصف واقعه الأليم فهو عليل الجسم ، ممتنع القيام سكران من غير خمر .

وأما الأبيات من ٢١– ٢٧ فهي توضيح لمصادر الألم ، فقد أصابته الحمى بمصر ، وهو أسماها ببنت الدهر لأن الناس ينسبون المصائب والشدائد إلي الدهر ، وهو يبين أثرها في جسمه ، فيذكر أنها تبيت في عظامه ، وهو يحاول دفعها ببذل فاخر الثياب بيد أنها تأبى إلا أن تبيت في عظامه ولا سيما وجهه الذي لا تهجره الحمى إلا إذا تصبب عرقاً ، وكأن العرق دموعها التي تسكبها لمطاردة الصبح لها ، فهي لا تفارقه إلا كارهة ؛ ولذا فإنه يراقب العودة في غير شوق وشتان ما بين مشتاق وغير مشتاق ، فالمريض إنما يجزع لورود الحمى فهو يراقب وقتها خوفاً لا شوقاً ، والعجيب أنها لا تخلف وعدها فهي صادقة الوعد ، وهو شر من الكذب لأنه صدق يضر ، كمن أوعد ثم صدق في وعيده .

– ٤ –

من أجل هذا يخاطب الحمى مستعطفاً لها بقوله : أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت إلي من الزحام ؟ إن الشدائد قد تزاحمت عندي بيد أنك استطعت اقتحام الكوارث إنني أتساءل متعجباً ألم يمنعك هذا الزحام من الوصول إليّ ؟ لقد جرحت رجلاً فوق جراحه حتى لم يبق في جسمه مكان لجرح وذلك من كثرة خوضه للحروب ثم يعود فيرجو الشفاء منها بقوله : يا ليت يدي علمت هل تتصرف بعد هذا في عنان الفرس ؟ أو زمام الإبل إنه يتمنى أن يصل إلي هدفه علي إبل نشطة فإن هذا الشفاء سيمكن له من أن

يشفي غليل صدره من أعدائه بمختلف أسلحة الانتقام كما أن برءه من مرضه سيتيح لـه التخلص من العقبات والأزمات لأنـه خبير بطرق الخلاص منها وهو تصوير لما كان عليه من نشاط إذ كان خلاصه في كل ضيق خلاص الخمر من نسج الفدام ، ثم ينوّه بالخلاص من كافور بقوله : وفارقت الحبيب بلا وداع ... سخرية به لقد هرب من أشياء كرهها فلم يقدر علي توديع الحبيب ولا أن يسلم علي أهل البلد الذي هرب منه ، ويمكن أن يكون عنوان هذه الأبيات (حوار واستعطاف)

وأخيرا يتهكم بالطبيب الذي شخّص مرضه فأرجع سببه إلي كثرة الطعام والشراب ، ولم يفطن إلي حالته النفسية البائسة ، فالذي أضرّ بجسمه إنما هو طول لبثه في مكان واحد ، وقعوده عن السفر الذي طالما تعوده ، فهو جواد يضر بجسمه طول القعود ، لقد تعود أن يخرج من حرب إلي أخري ، ولكنه في ظل كافور قد مُنع الحركة وحرم الحرية بيد أن ذلك لم يفتّ من عزيمته ، فهو يدعو إلي الاستمتاع بالحياة علي كل حال ثم يعلل بأن في السُّهاد متعة التأمل والتفكير وفي الرقاد متعة الراحة من العناء ، أما القبر فليست فيه هذه المتعة ولا تلك لأنه يختلف عن السهاد والرقاد وهو المراد بالحال الثالثة أو ثالث الحالين ،

وفكرة هذه الأبيات طيبة يمكن أن تكون هي عنوانا للأبيات من ٣٥- ٤٢ (بين السُّهاد والرقاد)

<u>الألفاظ والأساليب البلاغية :</u>

أول ما نلاحظه في القصيدة هو : خطابه لاثنين علي عادة الشعراء قديما وكذا التصريع في البيت الأول ، كما حرص علي عدم التصريح باسم الملوم والغرض البلاغي منه هو الاستعلاء علي اللائمين ، والإجلال لأقواله وتصرفاته ، والبيت الثاني : <u>كناية</u> عن ضيقه بمصر وأهلها والكناية توحي بحالته النفسية السيئة ، وفي البيت الثالث تشخيص حيث أنطق الحيوان وهو يشاركها وتشاركه مشاعره وأحاسيسه ، وزاد من جمال الصورة تلك الطباق بين

(أستريح وأتعب) ، و (الإناخـة والمقـام) وفـي البيـت الرابـع شـبه نفسه بالبهيمة في الحـيرة ، فهو لا يـدري أيـن يذهـب ؟ ويمكـن أن يكون المعنى : عيون رواحلي تنوب عنّي إذا ضللـت أهتدي بهـا ، وصوتها يقوم مقام صوتي إذا احتجت إلي أن أصوّت ليسـمع الحـي (ولا تخفي الاستعارة في بُغام الرازحة المنهكة) وفـي قِرى (مـخ النعام) كناية طريقة عن البخل .أما الأبيـات التـي ثـار فيهـا علـي المنـافقين : فإنمـا كـانت تعريضـا ببخـل كـافور وحاشـيته وقـد فـقد عندهم جلّ آماله ، وفي البيت العاشر : (مقابلة طريفة) صـاحبـهـا لحنٌ جـذّاب بين شطـري البيـت:

(يحب العاقلون علي التصافي✱ وحب الجاهلين علي الوسـام)

والبيت الحادي عشر : يحتاج إلي إعادة نظر :فهو يقول :وأنف من أخي لأبي وأمي ... حيث يمكن استخدام كلمة شقيق بدلاً مـن أبـي وأمي ، وبهذا يمكن أن يقول الشاعر (وأنف من أخي وكذا شقيقي) لتوسيع دائرة من يـأنف منهـم ، وللتدرج فـي إبائـه وأنفتـه فيكـون متعالياً علي أخيه لأبيه أو لأخيه لأمـه وكذلـك متعاليـاً علـي أخيـه الشقيق الذي هو أقرب .

وكذلك عاب عليه النقاد استخدام كلمة (كل) في قوله :

ولست بقانع من كل فضل ✱. بأن أعزى إلي جدٍ هُمام

لأن مجيئها في سياق النفي يحولها من الكلية إلـى البعضيـة ويكـون المعنى : أنه يقنع ببعض أنواع الفضل وبذلك يحدّ من طموح نفسـه إلي كـل أنـواع الفضـل فتضعـف المبالغـة وتضعـف معهـا صورتـه الأخاذة التي لم يكن يريد لها ذلك .

وأما كلمة (قـد) في قوله :

عجبت لمن له قد وحـد . ✱. وينبو نبوة القضم الكهام

يمكن أن تكون بمعنـى القطـع أوُ القـوام والمعنـي الأول : يعنـي بـه السيف ، والثاني غير مراد بالمرة إذ القوام لا يستخدم إلا في الغزل بقوام النساء ؛ ولذا كـانت هذه الكلمـة سببا فـي نشـاز الجنـاس فـي البيت ، وهو يرمز إلي فقدان الأمال عند كافور بقوله :

أقمت بأرض مصرَ فلا ورائي ✱تخب بي المطيُّ ولا أمامي

وقد أعان علي جمال التصوير ذلك الطباق بين (وراني وأمامي) وحسن التقسيم واضح في كثير من الأبيات ، وهذا كله من البديع غير المتكلف الذي يغين علي وضوح المعنى وقبوله ، ثم يبلغ المتنبي قمة التوفيق البلاغي والتصوير البياني حين يصور الحمي بمعشوقة تزوره علي استحياء وتتخذ من ظلام الليل ستارة تتسلل من ورائها إلي عاشقها خوف الرقباء والعذال فيقول :

وزائرتي كأن بها حيـــــــاءً ✱ فليس تزور إلا في الظلام

وهو يحاول الخلاص منها ببذل فاخر الثياب والفراش بيد أنها تدل عليه وتأبى إلا أن تنام في جسمه وأن تمتزج بعظامه ، فهي لا تقنع بالشحم واللحم لتنعم به وتهنأ بقربه ... وهكذا يضفي خياله الخصب علي الحمى صور المعشوقة الوالهة تارة وأخرى يصورها امرأة محرمة عليه اغتسلا بعد لقائهما فهو يتصبب عرقاً عند فراقها كأنه مغتسل وإنما خص الحرام بالذكر :إما للقافية وإما لأنه جعلها غريبة عنه فليست زوجة ولا مملوكة ، وإلا فالجماع علي الحلال كالجماع علي الحرام في وجوب الغسل ، وهو علي كل حال تعليل حسن من الشاعر والغسل مبالغة مقبولة ،.

ونعجب لهذه المرأة الوالهة إذ العاشقات يتدللن بخلف الوعد والتثاقل ليزداد العاشق تعلقاً ، ولكنها متهالكة عليه إذا فارقته ترقبت المساء لتعاوده الزيارة ، وقد برع الشاعر في استعطافه لها كي تتخفف في الزيارة وقد بالغ في التضرع واللين فناداها بالهمزة التي تشعرها بالقرب من قلبه (أبنت الدهر..) وعبَّر ببنت الدَّهر ليشعر بالعموم والكثرة الكاثرة من شدائد الزمان وهو يستنكر هذا كله بأسلوب إنشائي واستفهام تعجبي بلغ غاية التأثير

ومن الأساليب المبتكرة التي جاء بها الشاعر قوله :

ألا ليت شعر يدي أتمسي ... فالتعبير المألوف (ليت شعري) وليت شعر يدي تشخيص لليد حيث جرّد منها إنساناً له أحاسيسه ومشاعره المستقلة ، ولكن لماذا خصّ اليد بالذكر ؟ لعل آثار المرض كانت علي يده أظهر من بقايا أعضاء الجسم فعلّق الأمل عليها بعد أن فقده فيها . وقولـه :

وهل أرمي هواي براقصـــــات* محلاة المقاود باللغام

وفيه يجعل هواه صيداً شارداً وإبله سهاماً يصوبها حيث تحمله إلى هدفه في رشاقة وجمال الراقصات الفاتنات وقد جعل المقاود عقوداً ذهبيه واللغام خيوطاً فضية كل ذلك يزين الإبل ، ولكن هل يرضى الذوق الحديث عن تشبيه لغام الإبل بالخيوط الفضية ؟؟
أعتقد أن مثل هذا التشبيه أصبح ممجوجاً ،كما رفض النقاد تشبيهاً قريباً من ذلك في قول الشاعر (محمود أبو الوفا) :

إذا تحدث سال الظرف من فمــه *وإن يحدث تراه مطرق الراس

وعبارات السخرية والتهكم بكافور واضحة وقد لجأ الشاعر إلى الرمز في الأبيات (٣٣-٣٥) فقد رمز إليه بالحبيب وقد أعانه على السخرية ما وفق إليه من (طباق السلب) كما تهكم بالطبيب الذي اعتقد أن سبب مرضه يرجع إلى الطعام والشراب ، ثم أفصح هو عن علته الحقيقية وهي حبسه عن السفر وعن التجوال في المعارك ، ولهذا نجد المبالغة المحمودة في قوله :" ويدخل من قتام في قتام " وكأن أيامه موصولة بين الحروب ، كما أنه عرض مأساته في مقابلة ممتدة بين حاليه من خلال بيته" (٣٧-٣٨) وهو هنا قابل بين الفخر بنفسه مع اليأس والحسرة وعلى كل حال فالأبيات جمعت بين جمال اللفظ وجمال الفكرة معا
إن الشاعر فرّق بين حالات ثلاثة لا تخرج البشرية عنها ولا يفطن إلى الفرق بين لذة كل منهما إلا القليل ، فلليقظة وللطاقة المستغلة في موضعها لذة ، وللراحة التامة (النوم) بعد الجهد لذة أية لذة ، ولا يكون هذا إلا في الحياة أ ما راحة القبر فهذا عالم ثالث
وقد أعان الشاعر على جمال اللفظ ما وُفق إليه من طباق السلب في البيتين (٣٩-٤٠) وطباق الإيجاب في البيتين الأخيرين

* * * * * *

- ٦ -

والأفكار :-كما هو واضح- ذاتية بحتة لا تمتُّ إلي الإنسانية ، وإنما هي صورة لتجربة شعرية انفعل الشاعر بآلامها وعاش أحداثها حساً ووجداناً فهي معاناة لواقعه المرير وصدى لمرضه الأليم ، وأفكاره لا سرف فيها ولا إغراب ولذلك جاءت بارعة ملهمة مترابطة متماسكة وهذا ما يسميه النقاد (بالوحدة الفنية) أو العضوية وقد حملت تلك التجربة بين طياتها النار والنور : الأول علي الأعداء والآخر هداية للأحياء وهو في تجربته الذاتية قدوة حسنة تعلم المصاب كيف يعيش على نور الأمل كما توجه الكسالى إلي روح الحياة بما فيها من معتلي الحياة (من الهمّة والعظمة والنشاط والإباء)

- ٧ -

وعاطفة الشاعر: واضحة الصدق : فهي تجربة عاشها بعواطفه وعاناها بقلبه وامتزجت بوجدانه وقد عبر عنها تعبيراً يكشف عن حزنه ومرضه ، فهو صادق وهو يجل نفسه عن الملام صادق في شجاعته وهو يثور علي المنافقين من حوله ، صادق وهو يشك في فصيلة البشر حتى في أقرب الناس إليه ، صادق في تعريضه بكافور وحاشيته ، صادق وهو يشكو من مرضه ، ويسخر بطبيبه صادق وهو يُرجع أسباب مرضيه إلي حالته النفسية التي انتهت به إلي اليأس والقنوط بعد أن سدّ عليه كافور منافذ الأمل ، والرجاء بيد أنه يتظاهر بالتجلد لأحداث الزمان .

ومن يقرأ قوله :

أبنت الدهر عند كل بنت * فكيف وصلت أنت من الزحام

ثم يتأمل ما قاله في رثاء أم سيف الدولة :

رماني الدهر بالأرزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام * تكسرت النصال علي النصال

وهان فما أبالي بالرزايـــا ● لأني ما انتفعت بأن أبالـــي

يثق بأن معني الحزن متصل بنفس الشاعر ، منبثق من خواطـره الذاتية فالأبيات لا تصور شاعراً حزينا لفراق أم سيف الدولة بقدر ما تلقي ظلالا علي نفس الشاعر الخاصة وتوحي بأن حياته العامة عصفت بها الآلام ، وفاجأتها الأقدار ، كما توحي بمذهبه في الحياة والنتيجة التي ، توصل إليها الشاعر : (ما انتفعت بأن أبالي).

– ٨ –

ورغم ما عرف عن المتنبي بأن مخترع للمعاني ومولدها إلا أنه <u>قلد بعض السابقين في بعض معانيه:</u> خذ مثلا قوله:

فقد أرد المياه بغير هـاد ● سـوي عدي لها برق الغمـام

هو من قول عمر الأعور :

سقي الله جيرانا حمدت جوارهم ● كراما إذا عُدوا وفـوق كـرام

يعدُّون برق المزن في كل مهمـة ● فما رزقهم إلا بـروق غمـــام

وقول المتنبي :

ولست بقانع من كل فضـل ● بأن أعزى إلي جدٍ هـــمام

هو من قول البحتري :

وعد لهم عن لخر المجد غالـب ● فأفعالهم تحذوا قديم المناصب

وقوله :

تمتع من سهاد أو رقـــاد ● ولا تأمل كرى تحت الرجام

فيه نظر إلي قول الأخر:

تمتع بالرقاد علي شمـــال ● فنومك قد يطول علي اليميـن

– ٩ –

وارتباط الأبيات بقائلها واضح وانعكاس شخصيته علي القصيدة ظاهر ففيها من ملامح شعره الحكمة والألفاظ الجزلة والمعاني المبتكرة والافتخار بالنفس عند الشدائد والإشادة بمواهبه وفنه الشعري والقصيدة تكشف عن حالته النفسية السيئة التي أصابته

بمصر كما تكشف عن حقبة من حياته وطور من أطوار شعره قضاه في رحاب كافور وتعكس القصيدة استعلاء المتنبي علي من حوله حيث وضع نفسه فوق الشبهات كما تعكس شجاعته حيث استغني عن المرشد والمؤنس في الصحراء وتعكس نشاطه حيث استغنى عن الوقاء لوجهه من حر الصحراء ، كما تعكس حميته وأريحيته حيث يسرع بمغادرة مكان البخلاء .. وقوله :

ولست بقانع من كل فضل ● بأن أعزى إلي جد هُمَام

يعكس روحه المتسامية الأبية حيث اعتمد علي نفسه في كسبه الحمد لها والأبيات في معظمها تشف عن فشله في تحقيق أمانيه ، وصعب علي النفس الكبيرة أن تفشل ؛ من أجل هذا هو يتعالى فيمزج مرير الشكوى بلذيذ الفخر ، ولا يخفى ما في هذا من التأثير في نفوس السامعين !

ولما كانت الحكمة تجري في عروق شاعرنا كان من حكمته – وهو أعزل من كل سلاح – أن يكون تعبيره ظاهره فيه الرحمة يخدع به كافور وحاشيته ، وباطنه من قبله العذاب يلهب به ظهورهم ، وهذا مادعاه إلي استخدام الرمز والكتابة إذ كان فيهما متنفس الصعداء ، وبهذا كانت هذه (الميمية) ، انعكاساً واضحاً لنفسية أبي الطيب المتنبي.

– ١٠ –

موسيقي الأبيات :

ويُعني دائما بالموسيقي شيئان :أولهما تلك الموسيقي الداخلية والتي تتمثل في تلاؤم وانسجام عبارات النظم كما تتمثل في البديعيات غير المتكلفة التي يوفق إليها الشاعر من مثل الطباق وحسن التقسيم والمقابلة وغير ذلك مما هو معروف عند علماء البلاغة وبقدر حبكة تلك البديعيات وعدم نشاز إحداها وبقدر تعاون وتماسك والتئام صوره الجزئية – التي تعين علي خلق صوره كلية تامة البناء بقدر ما تتحقق تلك الموسيقي الداخلية .

والشيء الثاني:هو تلك الموسيقي(الخارجية) التي تمثلت هنا في (بحر الوافر) الذي تلاءم مع أنات المتنبي وانفعالاته كما صاحب أمواج قلبه الحزين الذي توارى خلف مديح نفسه والفخر بها ، تلك ثورة نفسية كامنة إلا أنه ادّعى الوقار والثبات مع الحكمة تارة والشكوى والحسرة تارة أخرى وهذا المد والجزر النفسي هو ما تمثله تفعيلات البحر الوافر وهي(مفاعلتن مفاعلتن فعولن) فالتفعيلتان الأوليان يمثلان الثورة والثالثة تمثل الهدوء ، وكذلك وفق في اختيار القافية الميمية والتي سبقها مد مناسب لحالته المُجْهدة التي يحتاج معها أن يُفرغ شحنات قلبه مع نهاية كل بيت يمتص تلك الشحنات المتأججة !

وأما موسيقى الأبيات (الداخلية) فقد كانت شائعة في النص متوائمة موفقة إلا في القليل النادر وكثيراً ما تغنّى الشاعر الحزين هنا بموسيقياه الحزينة على أنغام من الطباق والجناس وحسن التقسيم وإن عابه الإلحاح على التعريض بكافور مما أصاب بعض ألفاظه الموسيقية أحياناً !

وما هدأت نفس المتنبي حتى أشاع جواً موسيقياً وهو يختم انشاده حيث خرجت من وتر واحد هو طباق السلب ثم طباق الإيجاب !

أطوار شاعرية المتنبي

مماسبق: يمكن أن نجمل أطوار شاعريته في أربعة أطوار هي :

الطور الأول:

يبدأ منذ نشأته بالكوفة متنقلاً بين العراقين ثم الى بادية الشام حيث ضاقت عليه بغداد فمر بحلب وأنطاكيه واللاذقية فاحتفى به نفر من الأعيان والكبراء فمدحهم على عادة العرب وظفر منهم بالهدايا والعطاء ثم ارتحل عنهم ومضى إلى طرابلس الشام فلقي فيها " إسحاق الأعور " المعروف بابن (كيغلغ) وكان أمياً لايقدر الشعر قدره فأوعز إليه حساد المتنبي بأن يلتمس منه مدحه فاعتذر الشاعر وهاج كيد المتطاول فلم يجد أبو الطيب مناصاً من هجوه من ذلك قوله في وصف ابن كيغلغ :

وإذا أشار محدثاً فكأنــــــــــه * قردٌ يقهقه أو عجوز تلطمُ

وفي هذه الحقبة وشي به حساده إلي والي حمص فسجنه طويلا واتهموه بادعاء النبوة فكتب المتنبي يعتذر إلي الوالي ويستعطفه ويفهم منها أنه كان معذباً في سجنه ، جاء فيها قوله :

أمالكَ رقّي ومَنْ شأنـــــــهُ * هبا تُ اللّجين وعتقُ العبيدِ
دعوتك لما براني البــلا   وأوهن رجليَّ ثِقلُ الحديـد
وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيود
وكنتُ من الناس في محفـــــل * فها أنا في محفل من قـرود

فهو يطلب الرأفة ويعتذر بصغر سنه وبالغ في ذلك فقال :

تعجّلَ فيَّ وجوبَ الحدود * وحدى قبلَ وجوبِ السجود
وقيل عدوتَ على العــــالميــــن بين ولادى وبين القعــود

وانتهى هذا الطور المخجل بأن قبل الواليّ عذره واستتابه وأطلق سراحه فخرج من السجن بعد لصق به لقبُ المتنبي مع كراهته لهذا اللقب وشدة جحوده وإنكاره لما نسب إليه

الطور الثاني :

وقد كان في كنف سيف الدولة (٣٣٧هـ- ٣٤٦هـ)وكان سيف الدولة بن حمدان عربيا شيعيا ومحاربا شجاعا فترنم المتنبي انتصارات الأمير على البيزنطيين وعزف على مسامع الدنيا أجمل ما صاغه المتنبي من ألحان شعرية في تصوير المعارك والحروب حيث وجد ضالته في الأمير الحمداني منذ وقف عليه فأكرم وفادته وأحله المحل الرفيع يقول الدكتور طه حسين عن شاعرية المتنبي في هذه الحقبة :(١)

"لقد وثب بشعره ، حين اتصل بسيف الدولة وثبته التي رفعته الي الأوج وضمنت له مكانة بين الفحول من شعراء العرب ، فقد امتلك ناصية الفن حقا وجعل يتصرف بألفاظه ومعا نيه كما كان يتصرف بها الفحول وأثبت شخصية قوية واضحة ممتازة عن غيرها

---

(١) محمد كمال حلمي ص / ٣٨-٣٩ و(مع المتنبي) د / طه حسين ص١٧٨.

وأصبح مرآة واضحة لنفسه .نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعر المتنبي فنقول إنها قصيدته وهو لم يتأثر بهذا الشاعر أو ذاك ،على حين كنا قبل هذا الطور من أطواره نقرأ القصيدة من شعره فنحس وراءها المثل الذى احتذاه والنموذج الذى اتبعه ، فمرة نحس البحترى وحينا نلمح الحطيئة وحينا نلمح الأعشى وربما خُيِّل إلينا أننا نرى زهيرا ".

نال المتنبي الحظوة عند سيف الدولة ولكن لم يلبث أن تقشّع ظلها فقد أوغر الشعراء صدر الأمير ولاسيما بعد أن عاد المتنبي إلي غروره واستعلائه وتمسكه بألا ينزل في مدحه عن مستوى الملوك!

" وقد أكثر أبو الطيب من ذكر ذلك المركز العالي الذي ناله لدى الأمير كما أكثر من ذكر حساده والاستنجاد بالأمير في رد كيدهم عنه لأنه هو الذي جلب عليه حقد هؤلاء الحساد ، يقول[1]

أزل حسد الحساد عني بكبتهم ✽ فأنت الذي صيَّرتهم لي حسَّدا

وما كمد الحسّاد شيئا قصدته ✽ ولكنه من يزحم البحر يغرق

ويبدو أن أبا فراس الحمداني كان في مقدمة الشعراء الذين كانوا سبب الوحشة بين المتنبي وسيف الدولة ، وكثيرا ما اتهمه بالسرقة من الشعراء فيما يمدح به الأمير إلي أن ضجر الأمير بكثرة الأخذ والرد فضرب المتنبيَ بدواة كانت في يده فقال المتنبي علي الفور:

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا ✽ فما لجرح إذا أرضاكمُ ألمُ

ورغم ذلك لم يرحمه أبو فراس فقال: وهذا أخذته من قول بشار :

إذا رضيتم بأن نجفي وسركمُ ✽ قول الوشاة فلا شكوى ولاضجر

فلم يلتفت الأمير إلي قول أبي فراس وأعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال وقبّل رأسه وأجازه بألف دينارثم أردفها بألف أخري فقال المتنبي

جاءت دنانيرك مختومة ✽ عاجلة ألفا علي ألف

أشبهها فعلك في فيلق ✽ قلبته صفا علي صف

---

(1) محمد كمال حلمي ص ٤٨

الطور الثالث :

وأمام هذه النيران والأحقاد التي واجهها المتنبي اضطر إلي الفرار خفية إلي دمشق ثم جال في بعض نواحي الشام وفلسطين فكتب كافور إلي عامله بالرّملة ليبعث بالمتنبي إليه فجاء مصر فأكرمه كافور ، فطلب منه المتنبي أن يوليه ولاية في مصر فوعده كافور ثم ماطله لما رأى من تعاليه ، وما عرف عنه من أمر النبوة ، وخشي إن هو ولاه أن يطمع في ملك مصر من بعده فقال لمن عاتبه في أمره " ياقوم ، من ادعى النبوة بعد محمد ، أما يدعي المملكة بعد كافور ؟ ثم كانت العلاقة بينهما علي غرار ما ذكرناه[1]

الطور الرابع:

هذا هو الدور القصير كان أشبه بالاستراحة التي قضاها بعد عناء فلم يتصل بأحد من الأمراء ولعله لم يوفق إلي من يوافق مزاجه أو يُنسيه ما كان من أمر كافور معه وازدادت نفس شاعرنا كآبة فعاش في معزل عن الناس ولم يقصد أحداً من أولي الشأن في بغداد قاعدة الخلافة ومقر آل بويه الذين انتهي إليهم ملك الدولة الإسلامية حينئذ ، ثم رحل إلي بلاد فارس (٣٥٣هـ) فاتصل بابن العميد وكان أديبا ناقداً وركن الدولة ، فتبادلا الأشعار والمدائح ، ثم قصد المتنبي عضد الدولة وقال فيه :

وقد رأيت الملوك قاطبـــــــة * وسرت حتي رأيت مولاها

وهو ملك من أبناء العجم يحب العربية وينظم الشعر وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام وكان من جملة ألقابه تاج الملة ولما حضرته الوفاة كان لسانه يرددقوله تعالى " ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه " [2]

مقتل المتنبي وردت أخبار كثيرة عن ظروف مقتله ، ولعل أشهرها أنه استأذن عضد الدولة ابن بويه بعد أن مدحه وعاد من

---

[1] راجع هذا البحث ص ٣١ وما بعدها .

[2] راجع محمد كمال حلمي بك ص ٦٧

عنده بالأموال والنفائس ولما قرب من بغداد خرج عليه جماعة من البدو فقتلوه عند دير العاقول وقتلوا ابنه مُحَسَّداً وغلامه مفلحاً ونهبوا ما معه وكان مقتله في أواخر رمضان (سنة ٣٥٤ هـ)

كلمة أخيرة :

يظهر من مجموع أحوال شاعرنا أنه لم يكن يعرف المداراة - فاكتسب له أعداءً وحساداً في كل مكان حلّ فيه ؛ لذلك أكثر من ذكر الحساد في شعره فاستخفّ بها تارة وحمل عليهم مراراً حينما كانت تشتد عليه وطأتهم ، فكان له خصم في حاشية(بدر بن عمار) وخصوم في حاشية سيف الدولة منهم أبو فراس وابن خالويه النحوي وقد اكتسب في مصر عداوة "ابن حنزابة" وزير كافور وانتهى به الأمر إلى معاداة كافور نفسه

ولما فرّ من مصر وقصد بغداد أثار على نفسه سخط كبرائها وقامت عليه قيامة الشعراء والأدباء الذين أغراهم به الوزير المهلبي ومن شايعه ، ثم انضم إلى أعدائه (الصاحب بن عباد) الذي أساء إلى سمعة المتنبي وأخيراً كان موته ثمرة من ثمار العداوة التي شبّ نارها بهجائه لضبة بن يزيد العتبي .كل هذه الإهانات إنما لحقت بأبي الطيب لأنه لم يستطع أن يصانع الناس أو أن يكسب ودهم ، ولو أنه جاملهم وغضّ الطرف عن شيء من أذاهم في أول الأمر واتبع سياسة المداراة لكفّ عن نفسه عداوات كثيرة ، ولكنه أغرى الناس بنفسه بسوء تدبيره .

لو كان المتنبي شاعراً عادياً لماناقشه الحساب أحد ولكنه الحكيم الذي يدعوا للخلق الكريم وفضلاً عمّا ذكر ، فقد كان صاحب مطامع كبيرة في مصر والشام وكان الأولي به أن يتنازل عن هذا لأنه أعرف بنفسه من غيره [١]

● ● ● ● ● ●

---

(١) راجع محمد كمال حلمي بك /١١٣- ١١٥

أبو فراس الحمداني

في ظل ضعف الدولة العباسية وجد القادة الحمدانيون الفرصة مواتية للاستقلال فوفقوا إلي تأسيس إمارات لهم إلا أن الصراعات بينهم أدت إلي مقتل " سعيد بن حمدان " (والد أبي فراس) الذي كان أحد أمراء الموصل كما كان مقداماً استطاع أن يصد عن إمارته كثيرا من هجمات الثائرين وأن يغزو الروم ، ولما تمرد "ناصر الدولة الحمداني " شقيق سيف الدولة علي الخلافة العباسية واستقل بالموصل استدعي الخليفة الراضي بالله سعيد بن حمدان عم ناصر الدولة وولاه الموصل علي أن يخرج منها ابن أخيه ، فما كان من ناصر الدولة إلا أن قتل عمه والد أبي فراس ، وبعد مقتله استقلَّ بحلب (علي بن أبي الهيجاء) الذي لقب بسيف الدولة نظراً لإقدامه وشجاعته وقد احتضن إليه ابن عمه (الحارث بن سعيد) شاعرنا <u>إذن فأبو فراس هو :</u> الأمير الحارث سعيد بن حمدان بن عم سيف الدولة وناصر الدولة ولد بالموصل سنة ٣٢ هـ في بيت يجمع بين الحكم والأدب أو السيف والقلم فقد كان رأس أسرتهم (عبد الله بن حمدان) يلي الموصل للخليفة المتوكل وابن عم سيف الدولة حكم حلب وشمال الشام بعد عام ٣٣٣ هـ

أبو فراس الأديب

لما أغتيل والده بالموصل وهو في الثالثة من عمره غمرته أمه بحنوها وهيأت له مربين وشعراء من أهل الشام كان البحتري منهم وعاش أبو فراس صباه في بلاط ابن عمه سيف الدولة الذي كان زوجاً لأخته ولا شك أن أبا فراس قد انتفع بهذه البيئة حيث كان لها أثر في نقل شاعريته واستوائها علي سوقها حيث كان العلماء والشعراء يقصدون بلاط سيف الدولة الذي كان يشجعهم ويُغدق عليهم الجوائز وهو بهذا يحرك فيهم المشاعر والحاسة الفنية وقد أفاد أبو فراس من هذا كله ؛ ولهذا يخاطب سيف الدولة فيقول :

من بحـــر شعـــرك أغـترف ● وبفضـــل علـمك أعـتـــرف

لقد برع أبو فراس في فنون شعرية عرف بهـا بين أقرانـه وأهمها الفخر والوصف والاستعطاف والعتاب ، ولقد كان لحياته الحازمـة انعكاس علي شعره فهو لم ينظم في شراب أو خلاعة أو مجون ؛

ولهذا يقول فيه الصاحب بن عباد : بـدئ الشـعر بملك وختم بملـك يعني بالأول امرأ القيس وبالثاني أبا فراس ، لقد كـان بحق رب السيف والقلم ، كما كان شاعر الأمراء وأمير الشعراء في عصـره ولا سيما قبل أن ينضم المتنبي إلي بلاط سيف الدولة .

ولقد كان المتنبي يجله ويشهد له بالتقدير ويتحامي جانبه فلا ينـبري لمباراته ولا يجترئ علي مجاراته وهو وإن لم يمدحه ومـدح غيره من الحمدانيين فلعل السبب أنه كان يخشى اتهامه بالتملق له والجبن منه خاصة وأن أبا فراس كان علي رأس المناهضين للمتنبي فضـلا عن عدم مداراته كما ذكر .

وأبو فراس يجمع إلي الحكمة العزة والإباء كأعظم مـا يعرف بـه فتي محارب وكـان سيف الدولـة يعجب جداً بمحاسن أبـي فـراس ويميزه بالإكرام عن سائر قومـه ويصطنعـه لنفسـه ويصطحبـه في غزواته بل ولاه ثغراً من أهم الثغور فجعله أميراً علي منبج فتولـى شئونها وشرع يدفع عنهـا غـارات الروم وهجمـات القبـائل الثـائرة بابن عمه

أبو فراس الأسير:

وإلي جانب شاعريته كان فارساً ، تعلم الرماية والفروسية علـي يد أربابها ومن ثم خاض في حداثته المعارك وهو القائل " غزونا مـع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون في سنة ٣٣٩هـ وسني إذ ذاك تسع عشرة سنة وهو يجمع إلي حداثة شبابه وطموحه نضج الكهول وحكمتهم علي ما سيأتي في شعره

وحياة أبي فراس العسكرية تشهد له بالشجاعة والتفوق ، فقد حضر مع سيف الدولة معظم وقائعه مع الروم وكان الأعداء يرتعدون منه وتتخلع قلوبهم لمرآه .. وبرغم انتصاراته التي سجلها في شعره لم يحالفه التوفيق أحياناً فوقع أسيراً في أيدي الروم وهو يدفعهم عن حلب التي أعملوا فيها يد الدمار والتخريب حينذاك أصابه سهم من هؤلاء وبقي نصله في فخذه اضطر إلي أن يشق فخذه ليخلص من النصل وفي هذا يقول :

فلا تصفنّ الحرب عندي فإنّها   طعامي مُذْ بعت الصبّا وشرابي

وقدعرفتْ وقعَ المسامير مهجتي   وشقق عن زرَق النصول إهابي

وقد وقع الشاعر الحمداني أسيراً في يد الروم مرتين الأولى: وكانت في سنة ٣٤٨ هـ عندما عزم سيف الدولة على ضرب الروم في بلادهم وكان أبو فراس قائداً في الجيش فوقع أسيراً بعد أن نصب له الروم كميناً بمعاونة أحد الخونة في جيش سيف الدولة واستطاع أبو فراس الخلاص من أسره . أما الثانية :فكانت في سنة ٣٥١ هـ عندما زحف الروم إلي حلب ، ودافع أبو فراس عن معقل أسرته دفاع المستميت فجُرح في فخذه ونقله الروم أسيراً إلى القسطنطينية وقضى بها أربع سنوات أي أن سيف الدولة قد أبطأ كثيراً في مفاداة صغره وتخليصه من الروم ، وعاش أبو فراس في سجنه يعتصره الألم وسواء أكان إغفال الأمير عنه لشواغل استبدت به أو أنه لم يرد أن يخصه بالفداء دون الثلاثمائة الذين كانوا معه حتى يكون هناك فداء لشتى الأسرى من المسلمين ، أو أنه إهمال متعمد من الأمير لدسيسة قد أفسدت ما بين الرجلين –حيث اتهم بالحرب لحساب الروم –على أي حال– فإن النضال قد تكسرت على أبي فراس ، واشتعلت رأسه شيبا وساءت حالته النفسية وتوالت رسائله وفيها يعاتب ابن عمه مرة ويشكو همومه مرات وكثر نظمه للشعر في سجنه ، يعتب فيه على ابن عمه ، ويذكره

بفضله فكان مـن هذا كلـه عدد من القصـائد ألتي امتـازت بالرقـة والحنين ، وألتي عرفت باسم (الـــروميات) وهكذا ظـل السـجين حتى تم الفداء بين سيف الدولة والروم وذلك فى سنة ٣٥٥ هـ

وقد أطلق سراح أبي فراس وعاد إلي وطنه ولم تمض بضعة أشهر حتى قضى سيف الدولة ،وارتقى العرش من بعده ابنه أبـو المعـالي سعد الدولة ذلك الصبي الذي لم يتجاوز الخامسة عشـرة مـن عمـره فطمع أبو فراس فى حمص ولكن (أبـا المعـالي) اعترضـه ووقعت بينهما حرب انتهت بمقتل أبى فراس سنة سـبع وخمسـين وثلاثمائـة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره وقد جُمع شعره فى ديوان

هكذا كانت نهايته من وراء طموحه وعلى يد ابن سيف الدولة وابن أخته الذي طويت على يديه صفحة غراء مـن صفحـات الحمدانييـن الذين قال فيهم الثعالبى : "أوْجُهُهم للصباحة ، وألسنتُهم للفصاحـة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة."[1]

والقصيدة ألتي اخترناها للدراسـة هـي واحدة مـن (الـــروميات) ألتي تعكـس روح أبـى فـراس الأدبيـة ،كمـا تعكس شـخصيته ألتي جمعت بيـن حداثـة شـبابه وطموحـه ، ونضـج الكهـول وحكمتهـم كأعظم ما يعرف به هذا وذلك والقصيدة ألتي معنا تزيد عدتها علي أربعين بيتاً ، وقد سُمّيت بمطلعها وهو (أراكَ عصيَّ الدّمع) **وفيها يقول :**[2]

– ١ –

أراك عصــــيّ الدّمع شيمتك الصبــــــر أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمـــر[3]

---

(١) راجع مقدمة ديوان أبي فراس الحمداني شرح وتقديم عباس عبد الساتر ط/٢ /١٩٨٦م دار الكتب العلمية بيروت وكتاب من عيون الأدب د/محمد كامل الفقي ط/١ /١٩٧١دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ص/٦١

(٢) ديوان أبي فراس ص/٦٤ ومن عيون الأدب ص/٥٨ – ٦٠

(٣) أراك .. الخطاب لنفسه علي طريقة التجريد .

نعـــــم أنا مشتـــــاق وعنـدي لوعـــــة   ولـــكن مثلي لا يُذاع له ســـــرُّ
إذا الليـــلُ أضواني بسطـــتُ يدَ الهـــوى   وأذللتُ دمعاً من خلائقه الكبرُ[1]
تكاد تضيءُ النـّــــار بين جوانحـــــي   إذا هي أذكتها الصبابة والفـكرُ[2]
معللتي بالوصـــــل والمـــــــوتُ دونـــه   إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطـــرُ[3]

– ٢ –

بَدَوتُ وأهلي حاضرونَ لأنـنـــــــي   أرى أنَّ داراً لستِ من أهلها قفرُ[4]
وحاربتُ قومي في هواكِ وإنَّهـــــــم   وإيَّايَ لولا حُبُّكِ المــاءُ والخمرُ[5]
وإن كان ما قال الوشـــــاة ، ولم يكـــن   فقد يهدم الإيمان ماشيَّد الكفـــرُ[6]
وَفَيتُ وفـــــي بعض الوفـاء مـذلـــــة   لآنســـةٍ في الحي شيمتها الـغدرُ
وقـورٌ وريعـــانُ الصبا يستفزُّهـــا   فتأرنُ أحياناً كما أرن المُـهرُ[7]
تسائلني من أنتَ ؟ وهي عليـــــمة   وهل بفتىً مثلي على حاله نكرُ ؟
فقلت كمـــــا شـــاءت وشاء لها الهوى   قتيلكِ قالت أيهــــمُ ؟ فهم كثرُ !
فقلت لـها : لـو شـــئتِ لـم تتعنـتي   ولم تسألي عني وعندكِ بي خُبرُ[8]
ومــــا كـان للأحـزان لولاكِ مسلـكٌ   إلى القلب لكنَّ الهوى للبلى جسـرُ
فأيقنـتُ أن لا عـزَّ بعـدي لـعاشـــقٍ   وأنَّ يدي ممـــا علقت به صـــفرُ

---

(١) أضواني: شجاني وأضعفني . خلائقه : صفاتـــه .والكبـر : الأنفــــة .
(٢) الجوانح: أوائل الضلوع تحت الترائب أذكتها أشعلتها . الصبابة: الشـــوق
(٣) معللتي بالوصل: مطمعتي أي تبسط لي الآمال في الوصال. القطر: المطر
(٤) بدوت أقمت في البادية وأهلي حاضرون أي من أهل الحضر .
(٥) وإنهم وإياي...أي ممتزجون امتزاج الماء بالخمر
(٦) الوشاة : جمع واشٍ وهو من يزوّر كلاماً يسعى به بين الناس.
(٧) وقور : أي هي وقور وريعان الصبا : مقتبله (شبابه) يستفزها : يستخفها
تأرن : تمرح وتنشط يقال : مهر أرن أي مرح ونشيط .
(٨) لم تتعنتي : أي تتعنتين وتعنتّه : سأله عن شيئ أراد التلبيس عليه والمشقة

فقالت : لقد أزرى بك الدهـــر بعـــدنا   فقلتُ:معاذ الله بل أنتِ لا الدهرُ[1]

- ٣ -

وقلبـــتُ أمـــري لا أرى لـــي راحـــة   إذا البين أنساني ألحّ بي الهجر[2]
فعـــدتُ إلـــي حـــكـــم الزمـــان وحكمـــها   لها الذنب لا تجزى به ولي العذر
كأني أنادي دون مـــيـــثاء ظبيـــــــة   على شرفٍ ظمياءَ جللها الذعر[3]
تجَفّـــلُ حـــينـــاً ، ثم تدنـــو كأنهـــــا   تنادي طلا بالجزْي أعجزهُ الحصر[4]

- ٤ -

ثم قال يفتخر :

وإنّـــــــي لنـــزّالٌ بكـــل مخوفـــةٍ   كثيرٌ إلي نزّالها النظـــرُ الشزْرُ[5]
وإنّي لجـــــرّار لـــكل كتيـــبـــةٍ   مُعـــوّدةٍ أن لايخلّ بها النصر[6]
فأصدي إلي أن تتروي البيضُ والقنـــا   وأسغبُ حتى يشبعَ الذئب والنســر[7]
ولا أصبحُ الحيّ الخلوفَ بغـــــــارةٍ   أو الجيش ما لم تأته قبليَ النُذر[8]

---

[1] أزرى بك الدهر : غيّر حالك ، وأساء إليك .

[2] البين :الفراق والبعد من أسماء الأضـــداد .

[3] الميثاء : الأرض السهلة وماتسع من فوهة الوادي والشرف :المكان المرتفع، وظمياء : رقيقة الجفـــون . وجللها الذعـــر : شملها الخـوف .

[4] تجفّل : تسرع . والطلا : ولد الغزالة ساعة يولد . والحصر : العي

[5] المخوفة : ارض مخيفة . والشزر : نظر فيه إعراض أو غضب وامتعاض

[6] جرار : أي قائد . والكتيبة العسكر المجتمع أو الجماعة من الخيل إذا أغارت من المائة إلي الألف ألا يخل بها : ألا يتركها .

[7] أصدى: أظما البيض: السيوف .القنا: جمع قناة وهي الرمح وأسغب:أجوع

[8] الحي الخلوف : أي الغائب رجاله ، أي أنه لايهـاجـم أعدائه ما لم ينذرهم

وياربَّ دارلـم تُخَـــقى منيعـــــــةٍ   طلعت عليها بالردى أنا والفجر[1]
وساحبة الأذيــــــال نحوي لقيتهــــــا   فلم يلقها جهم اللقاء ولا وعـر [2]
وهبت لها ما حازه الجيش كلَّـــــــهُ   ورحتُ ولم يُكشف لأثوابها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغـــــــــني   ولا بات يثنيني عن الكرم الفقـــر
أسرت وما صحبي بعُزل لدى الوغـــي   ولا فرسي مهر ولا ربُّه غمر [3]
ولكن إذا حمَّ القضاء علي امـــــــرئٍ   فليس له برٌّ يقيه ولا بحـــر [4]
وقال أصيحابي الفرار أو الـــــــرَّدي   فقلت هما أمران أحلاهما مـــرُّ
ولكنني أمضي لمـــا يعيبـــــــــــني   وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فـــي دفع الـرَّدى بمذلـــــةٍ   كما ردَّها يوماً بسوأته عمـرو [5]
يمنُّون أن خلوا ثيابي ، وإنَّمـــــــــا   عليَّ ثياب من دمائهمُ حمـــر [6]
وقائـم سيف فيهــــم اندق نصلـــــــه   وأعقاب رمح فيهمُ حُطِـمَ الصدرُ

---

(1) دار منيعة : حصينة . والردى : الهلاك .

(2) ساحبة الأذيال : كناية عن الفتاة الجميلة المتبخترة . جهم اللقاء: غليظ خشن ووعر اللقاء : جافي اللقاء .

(3) العزل جمع أعزل : وهو من لا يملك سلاحاً معه والمهر : ولد الفرس أول ماينتج منه . والغمر : من لم يجرب الأمور .

(4) حمَّ القضاء أي قدر أو شاء القدر .

(5) السوأة : العورة الفاحشة وعمرو هو ابن العاص .

(6) منَّ عليه : أي أنعم عليه والاسم المِنة ومنَّ عليه وامتنَّ وتمنَّن: قرَّعه بمنة ، وخلو ثيابي : تركوها..

– ٥ –

سيـــذكرني قـــومي إذا جَدَّ جِدهــــــم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر (١)

ولو سدَّ غيري ما ســــددت اكتـفـوا بـه   وماكان يغلوا التبر لو نفق الصفر(٢)

ونحن أنـــــاس لا توســط بيننــــــا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفـــوسنــــا   ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

أعزُّ بني الدنيا وأعـلى ذوي العـــــلا   وأكرم من فوق التراب ولا فخر

تحليل وتعليق

تقديم واستهلال

بدأ الشاعر قصيدته بداية قديمـة تقليديـة حيث بـدأ بـالغزل ، بيد أنـه أطال في مقدمته الغزلية حتـى قـاربت نصـف القصيدة تقريبـا وكـان المقدمة لم تكن مجرد تقليـد بـل كـانت هدفـا مقصـودا ، وبهذا يمكـن القول : بأن موضوع القصيدة هو (النسيب والفخر)(٣)

والأبيات الخمســة الأول حوار طريـف بيـن الشـاعر ونفسـه أو بينـه وبيـن صـاحبـه الـذي جرَّده مـن نفسـه ، فهذا الصـاحب يعيـب علـى الشاعر تجلده وصبره علي ما به من وجد وصبابـة ، وكيـف يقـوي علي سلطان حبه والحب يأمر وينهي ويغير ويبدل ، فيجيب الشـاعر بأنه يعاني من الشوق حقاً وهو يعالج جراح حبـه بيد أنـه يكتم ذلك لئلا يصير حبه مضغة للأفواه من أجل هذا هو يطـالع النـاس بدمعـه الأبـي وبقلب المتجلد فـلا يشكو ولا يضعف إلا فـي ظلمـات الليـل ولهيب الصبابة بين جوانحه وهو لا يفتأ يذكر محبوبتــه ويتمنـــى

---

(١) الجد بالكسر : الاجتهاد..

(٢) يغلوا ضد يرخص\، ونفق الشيء راج ، التبر : الذهب غير مضروب الصغير النحاس الأصفر..

(٣) راجع شرح إبن خالويه للقصيده الرائيه بالديوان جـ / ٢ ٠

لقاءها وهو بعيد عنها ممتنعة عليه ؛ ومادام هو لا يروي ظمأه إذا فهو يدعو بألا ينزل المطر الذي يروي ظمأ الناس حتى يتساووا به وإن اختلف السبب ! وهو غريب الدار مادام بعيداً عن المحبوبة وإن كانت هي تعيش معه بروحها ومشاعرها

حوارُ المحبّين :

وهو حوار يشف عن وفاء وإخلاص فهو يقول لها لقد اختلفت حياتي عن حياة قومي ، وقد انصرفت عنهم وملتُ إليك لأنني أرى كل شيء حولي خرباً قفراً ما دمت بعيدا عنك ولقد حاربت قومي يدفعني حبك الذي آمنت به ولولاه لالتصقت بقومي وامتزجت بهم امتزاج الماء بالخمر .لقد تمكن حبك هذا من قلبي فخالط هواي ، وهذا الحب القوي كفيل بأن يهدم ما يشيّده الواشون .

ثم يحكي قصة حبه ووفائه اللذين قوبلا منها بالغدر ، فهي تبدو في وقار مصطنع بينما هي عابسة مستهترة يستخفها ريعان الصبا فتمرح كما يمرح المهر وهي تتجاهله حين تسأله من أنت ؟ فيعجب وهو الفارس المغوار والعلم المميز بيد أنه يجاريها القول فيجيبها في تسامح وصدق : أنا قتيلك الهائم بحبك ولكنها تزيد في تجاهلها له فتسأله . وأي العشاق أنت ؟ فهم كثيرون ، وهنا يضطر إلي أن يفضح دلالها وأن يدفع عنه تجاهلها فيعاتبها ذاكراً لها أنها تعرفه فليس لها أن تسأله ثم يذكر أنه لم يكن يعرف طريقاً للأحزان إلا أن الحب أوصله للهوان (فالهوى للبلي جسر) وهو يعزم علي عدم العود إلي مثل هذا الحب الذي فشل فيه وخرج منه صفر اليدين فترد عليه المحبوبة معتذرة عما بدر منها معللة تجاهلها بأنها لم تكن تعرفه وقد هزل جسمه وغير الدهر حاله ، فيرد عليها بأن الحب هو السبب كله وليس الدهر كما تدعين .

عودة إلي النفس :

والأبيات من (١٧- ٢٠) فيها يعود الشاعر إلي نفسه وكأنه يراجعها بعدما فقد الراحة في حبه وحاول بالفراق نسيانها فلم يستطع

فعاد إلي الزمان ليلقي عليه التبعة ، ويسند إليه حكما جائراً وهو : أنها إذا أذنبت فلا تؤاخذ بذنبها وله أن يعتذر هو علي الذنب وهو يصور العلاقة بينهما (علاقة المد والجزر العاطفي) بظبية مضطربة علي مكان عال وهي تندُّ وتبتعد وهو ينادي عليها وكأنها هي التي تنادي علي ولدها الصغير الذي لا حول له ولا قوة

الفخر والاعتزاز :

والأبيات من(٢١- ٢٩) هو موضوع القصيد حيث يعرض للفخر والاعتزاز والحديث عن الحرب بعدما أثار الأسر عواطفه وشجونه كما أثاره تباطؤ الأمير في خلاصه وهذا ما دعاه لأن يذكر المواقف المشرفة التي خاضها وكانت مدعاة لفخره ؛ لذا هو يوازن بين حالين متناقضتين : بين حاله اليوم وقد أصبح مكبلا ومقيداً وحاله بالأمس وهو يشن غاراته علي العدو الذي أسره ؛ ولذا فهو حزين ملتاع يتألم لفراق أمه وأبناء وطنه وقد أصبح لا يدري عنهم شيئا وهو يرنو إلي سيف الدولة لينجده بعد أن قاد له الجيش وخاض المعارك وكان حليفه النصر ؛ من أجل هذا هو التغني بهذه الذكريات لعلها تسري عن نفسه وتعزيه في مصابه فيذكر أنه لا يشن غارة علي أعدائه ما لم ينذرهم مسبقا وهو يفتخر بأدبه في الحرب ورب قوم ذوي هيبة ومنعة وتحصن طلع عليهم مع الفجر فكانت غارته هلاكاً لهم لا محالة !

وشاعرنا يأبي أن يضيم ضعيفا ؛ ولذا هو يقبل شفاعة المرأة لأنها من بين الضعفاء فهو يلقاها في سماحة وتكريم ويصغي إليها في إكبار واهتمام بأمرها وهو بكرمه يهب لقومها كل ما غنمه منهم ويعيد لهم ما سلب منهم دون فضيحة لقومها أو كشف لسترها وهو لا يغره المال ولا يصده الفقر عن اكتساب المجد ومعالي الأمور وهذا أيضا من (افتخاره بأدبه في الحرب)

قصة الأسـر :

والأبيات مـن (٣٠-٣٦) تحكي قصـة الأسر كمـا تكشف عن نبلـه وشجاعته ، وفخر إنها وقفة مع القدر الذي لوقعه في الأسر رغم ما معه مـن السلاح وكثرة الأصحاب ، ولم يحل دون أسره ، حنكة فرسه ولم يكن فرسه صغيرا غير مُعد للحرب بل كان مُعـداً ومدربا وهو ما كان غافلا غير مجرب بل هو الخبير المجرب ولكنـه القدر الذي لا مفر منه والأمر النافذ الذي لا يُرد ، لقد نصحه بعض صحبه بالفرار - وهم قلة متبقية - وقد حاولوا حين حمي وطيس القتال أن يقنعوه بالفرار إلا أن نفسه أبت ذلك الفرار وكان جوابه المحكم المأثور :(هما أمران أحلاهما مر) إذ أن الفرار لا يخلفـه إلا الذل والعار ؛ ولهذا فهو ماض في طريق الشرف ، وسيحمل اللواء وحسبه من الشرف البسالة لقد أقدم على مسلكين مريرين :إما الأسر وإما الهلاك ، وإن عاراً أي عار أن يذود الشجاع عن نفسه بما يجلب له العار وذلك كما فعل ' عمرو بن العاص ' عندما همّ الإمام على كرم الله وجهه - بقتله فكشف له عن سوءته ، أعرض عنه لعلمه أن عليا لم ير سوءةً قط ، ومن ثمّ قيل : كرم الله وجهه ويستطرد الشاعر في فخره وهو يقص ما وقع له في أسره فيذكر أن أعـداءه (الـروم) لم يجرّدوه بعد الأسر من ثيابه ؛ ولهذا فهم يمنّون عليه بذلك زاعمين أنه تفضل منهم وكرم - يقول : وإنـي لأكتسي ثياباً حمراء من دمائهم أي أن ثيابه حمراء لتلطخها بدمائهم

عود إلى الفخر بنفسه :

والأبيات من (٣٣-٤١) هي عود إلي الفخر بنفسه والإشادة بفضله علي قومه فيقول : إن قومي سيذكرون بلائي ويعرفون فضلـي حين يخنقهم الضيق وتطبق عليهم الشدائد وما أنا إلا كالبدر لا يقدر الناس ضوءه إلا في الليالي الظلماء حين لا يجدون سبيلاً للهداية غير ضوئه وأنا في قومي بطل لا غنى عني ولو وجد قومي ما يضمن

لهم الغلبة والنصر ما ذكروني ، شأني في ذلك شأن الذهب ما يرتفع
له قدر لو ناب النحاس منابه !

إن الجبن لا يعرفنا ولا نعرفه لقد تعوّدت نفوسنا ألا تقنع إلا بغايات
الأمور فإما أن نكون شجعاناً لنا الصدر وإما أن يكون لنا القبر
فباطن الأرض حينئذ أولى بنا من ظاهرها إنا نرخص أرواحنا
ونجود بها ما دام في سبيل المجد والشرف وهكذا من يطلب يد
الحسناء لم يغلها المهر فكل ما يبذل من أجلها زهيد !

إننا بهذه الخصال أكرم الناس عامة وقمة أهل المعالي وأرفعهم بل
إننا بغير مبالغة ولا ادعاء لأشرف مَن علي الأرض

مناقشة الأفكار:

– ١ –

عرض الشاعر أفكاره عرضاً شيقاً ومشرقاً لا يكتنفه لبس ولا
غموض حتى إن القارئ ليشعر بأنها من سلاستها سافرة ، فالمعاني
التي جلاها أبو فراس ترسم بطولته وتطلعه لمواقف النزال ،
واستطاع أبو فراس أن يلائم بين الغزل والفروسية والفخر بما يجب
أن يتحلي به القائد العربي وهذا ما يؤكد قوة عزيمته وعدم استسلامه
فهو في غزله صاحب الدمع العصي ، والصبر شيمته وليس للهوى
سلطان عليه فلا يذاع له سر ولا يبسط هواه إلا ليلا وهو في فخره
صاحب شجاعة وبطوله فلا يتخلف عن حرب أو قيادة وهو يعطش
حتى ترتوي السيوف والرماح من دماء الأعداء وهو يجوع حتى
تشبع الذئاب والنسور وهو يرسم للمحاربين (أدب الحرب) فيوضح
إباءه ورحمته بالمرأة وطهارته وعفته وعفوه عن قومها كما في
قصته مع المرأة حين تشفع فتشفع وقصته مع من يحاورهم ويردهم
إلي قضاء الله ثم ذكره لقصة عمرو بن العاص مع الإمام علي
وهكذا يتضح ما ذكرناه من وضوح الأفكار وسلاستها بيد أنها علي
درجة كبيرة من السطحية

الألفاظ والأساليب :

وجاء أسلوب القصيدة لا يعكره قلق ولا يشوبه تقديم أو تأخير ولما كانت التجربة علي نفس الشاعر قاسية جاءت عباراته مؤثرة وألفاظه موحية تعبر عن واقع أليم ففي قوله :

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ❊ وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

كناية عن المعاناة وهي توحي بالصبر والصمود وقوله :

معللتي بالوصل والموت دونه ❊

كناية أخرى توحي بالتردد الذي يعانيه في نفسه وهو وإن كان يريد بالعذاب موت العذاب والحرمان إلا أن الموت الحقيقي يراه دائما في معاركه فلا يعبأ به

ولنطالع مثلا قوله :

ولكن إذا حمّ القضاء علي امرئ ❊

وقوله : علي ثياب من دمائهم حمر

وقوله: تهون علينا في المعالي نفوسنا

وهو في الفخر ينتقي العبارات المناسبة له ، كقوله :

(ولكن مثلي لا يذاع له سر) ، (وحاربت قومي) ، (وإني لجرار) (طلعت عليها بالردى) ، (سيذكرني قومي) ....

.وهكذا ينتقي ألفاظه المناسبة للنسيب أو الفروسية لتكون أوفي تعبيراً وأدق تصويراً وأكثر إيحاءً وتأمل معي بماذا يوحي التصغير في قوله : أصيحابي الفرار أو الردى ، أهو لقلة عدد الصحاب الباقين حوله ؟ أو الهامسين له بالفرار؟ أو هو تحقير لهم دون بقية الجيش ؟ وهو يكثر من الأساليب الإنشائية والخبرية وله في كلٍ وجهته ، فهو يكثر من الاستفهام مثلاً ليناسب الحوار الذي بنى عليه قصيدته كقوله:

أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر ؟ ❊

وهو هنا للتعجب ، وكذلك في قوله :

تسائلني من أنت وهي عليمة❊ وهل بفتى مثلي علي حاله نكر؟

وأما الاستفهام في قوله :

قالت : أيهم فهم كثر؟ * فقد قصد به التحقير والتهكم به !

وفي القصيدة إلحاح علي أسلوب الشرط ، وكذلك إلحاح علي أسلوب الاستدراك وكلاهما مناسب للحوار والنقاش كقوله :

(إذا الليل أضواني) ، (إذا هي أذكتها) ، (إذا مت ظمآنا)الخ

ومن الأساليب الإنشائية أيضا النداء في قوله :(معللتي بالوصل)

والتمني : كقوله :(فلانزل القطر) (ولا وفر الوفر)

وهو ينبه المخاطب دائماً عن طريق الانتقال من صيغة المخاطب إلي صيغة المتكلم كقوله : (أراك عصيّ الدّمع) (إذا الليل أضواني)ومن التكلم إلي الغيبة (وساحبة الأذيال نحوي لقيتها)

وفي الأبيات إلحاح أيضا علي كلمة (لا) وكأنه يرمز بها إلي رفضه لواقعه الأليم وعدم استسلامه وخضوعه ، كقوله :

(لا أرى لي راحة) (ولا أصبح الحي الخلوف بغارة) (ولا راح يطغيني) (ولا بات يثنيني) (و لا فرسي مهر) ...الخ

وقد شاعت الحكمة بين أرجاء القصيدة وهي مؤشر يدل علي بعد نظره وكثرة تجاريبه خذ مثلاً قوله :

(ولكن إذا حم القضاء علي امرئ * فليس له بر يقيه ولا بحر)

وقوله : (وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر)

(وما كان يغلوا التبر لو نفق الصفر)

(ومن يخطب الحسناء لمْ يغلها المهر)

والحكمة إنما يعتمد إليها الشاعر ويحرص عليها ، ليُعرف بها وليكون قوله ، أدعي إلي التأكيد والتصديق وهو هنا يضيف إلي التأكيد بالحكمة ، التأكيد ببعض الأساليب الأخري :

كلفظ (أن)في قوله : (وأن يدي مما علقتِ به صفر)

(وإن واللام) في قوله :

(وإني لنزال)،(وإني لجرار)

ولفظ (كل) في قوله : (وهبت لها ما حازه الجيش كله)

وأبو فراس وهو الشاعر المطبوع لم يتكلف بديعاً يزين به أسلوبه

أو يرهق به بيانه إلا ما جاء عفو الخاطر ، كالطباق – وقد شاع بين الأبيات – وهو علي كثرته أفاد أسلوبه توضيحاً وتأكيداً .
كقوله : (نهي وأمر)–(أذللت والكبر) –(معللتي بالوصل والموت دونه) –(عليمة ونكر)–(الذنب والعذر)–(تجفل وتدنو)–(فأصدي وترتوي)–(وأسغب ويشبع)–(بر وبحر)– (الفرار والردي)–(خلوا ثيابي وعلي ثياب)–(التبر والصفر)– (الصدر والقبر)– وقد شاعت الكنايات المحكمة كقوله :
(ساحبة الأذيال كناية عن المرأة) وعن إراقة الدم باحمرار الثياب وجعله السيوف البيض والرماح ممن ترتوي (علي الاستعارة)وهو يجعل الجد صاحب جد مبالغة ، علي سبيل المجاز العقلي .
كما يجعل نفسه ذهبا وغيره نحاسا وهو يشبه طلب قومه له حين تنزل بهم الأحداث بتلمس الناس للقمر في الليلة الظلماء ، وهو لم ينصب الفعل (ترتوي) في قوله : فأصدي إلي أن ترتوي البيض والقنا وذلك لضرورة شعرية

– ٣ –

وعاطفة الشاعر: صادقة أيَّ صدق ؛ فأبياته مرآة لخوطره الملتاعة وتسجيل لحبه ورجولته وأخلاقه ومبادئه ، فهو صادق في عواطفه الحارة وروحه التي يعتصرها الألم وهو يعاني ألم الغربة ، بعدما آثر الأثر ؛ لهذا كله لم تكن أفكاره علي درجة من التعمق فليس الملتاع صالحا لأن يغوص ويستقصي ويتأمل ، ذلك أقرب لذوي الفراغ منه إلي المحزونين ! **لهذا نقول في اطمئنان:** إن كل فكرة إنما نبعت من كبد ملتاع وقلب ولهان ، وما يشك مستمع للقصيدة في صدق العاطفة في كل بيت من أبياتها

– ٤ –

والأفكار وإن كانت تقليدية إلا أن الجديد فيها والطريف إنما هو ثوبه الذي أحسن نسجه ، وعرضه الذي أجاد سبكه وربما كان من الجديد أو الطريف هو مبالغته في شفاعة المرأة التي تشفع في

خصمه المحاربين فيهش للقائها ويبش بقدومها ويهبها ما جمعه الجيش دون أن ينال منها غرضا أو يكشف لأثوابها سترا ، والغريب هنا أن يقاتل خصوم الإسلام والعروبة فينزل عن شتى المغانم لشفاعة امرأة من أعدائه وهذه سياسة لا نظن أنها متمشية مع سلوك الإسلام ولا مع سنة المحاربين ولا يخدعنا نفي طغيان المال له ، فليس ما جمعه الجيش للقائد وحده !

ومما يؤكد تقليد أبي فراس لغيره ما ذكره الدكتور زكي مبارك من أن قول أبي فراس :

بدوت وأهلي حاضرون لأنني ... أرى أن داراً لستِ من أهلها قفر

مأخوذ من قول جميل : [1]

أبيت مع الهُلّاك ضيفاً لأهلها ... وأهلي قريبٌ موسعون ذوو فضل

وأن قول أبي فراس :

وحاربت قومي في هواك وإنهم ... وإياي لو لا حبك الماء والخمر

مأخوذ من قول جميل : [2]

كأن لم نحارب يا بثينَ لو انها ... تكشفُ غمّاها وأنتِ صديـــقُ

– ٥ –

وبريق القصيدة وغرضها يشعر لأول وهلة: أن **الأفكار ذاتية** ، إلا أن الصفات التي فاخر أبو فراس بها هي صفات القائد العربي المسلم الذي يجاهد قوما كالروم وهم أعداء المسلمين والعرب وهم الذين أسروه وغمرته الأحزان عندهم ، فالفخر هنا (في الحقيقة) إنما هو تنويه بالقائد العربي المسلم وليس قاصراً في ذلك علي شخصه حتي موقفه المبالغ فيه مع المرأة (ساحبة الأذيال) تنويه بسماحة الإسلام والخلق العربي الأصيل .

---

(١) الهلاك : المعوزين الذين ينتظرون الحسنة من الناس [شرح ديوان جميل بثينة ص٦٧ لمهدي محمد ناصر الدين ط/١ دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧].

(٢) شرح ديوان جميل ص ٥٧

والقصيدة تعج بمبادئ كريمة ، فهو لا يخشى الحرب ، ولا يهاب الموت ولا يخوضها بغير سلاح ، ولا يلجأ بحال إلي دفع الردي بمذلة وهو أولا وأخيرا يؤمن بقضاء الله وقدره فأفكار القصيدة – إذن – إنسانية عامة ألبسها صاحبها ثوب الذاتية

– ٦ –

وارتباط القصيدة بأبي فراس : أغنى ما تكون عن البيان ، فصورته فيها تبهر العيون بل إن فيها أيضاً صورة مَن معه من المجاهدين ! لقد فجر الأسر تجاربه وأشعل وجدانه فجاءت أبياته انعكاساً صادقاً لمجده وكبريائه ، كما جاءت أبياته : حباً وحنيناً ودمعاً وأنينا

والشاعر في فخره يلتزم بأدب النفسْ وأدب الحرب فلا تطغيه أموال الغنائم أو نشوة الانتصار عن العفة والحفاظ علي العرض وهكذا تنعكس علي الأبيات عواطفه الحارة ونفسيته الحزينة ، كما تنعكس أخلاقه ومبادئه الإنسانية العامة .

بيد أن خواطره قد ترابطت في الجزء الأول وهو النسيب ، ثم بدت غير مرتبة في الجزء الآخر وهو الفخر .

– ٧ –

<u>موسيقى الأبيات:</u>

وفي الأبيات خفة ورقة وائتلاف نغم ! فالقارئ يحس بين الأبيات حسن إيقاع وبعد عن القلق ، ولعل مرجع ذلك إلي ما وفق إليه الشاعر من طباق غير متكلف وكلمات قابل بينها فأعانت علي التلاحم الفنيّ كما في قوله :

(وهبت) (ورحت) (ولا راح يطغيني) (ولابات يثنيني)الخ

وكذلك ما وفق إليه من اختيار بحر الطويل (فعولن مفاعيلن) وقد طال ليله وكثر حزنه ، كما وفق في اختيار تلك (القافية الرائية) المناسبة للفخر وذلك لما فيها من امتداد الصوت وامتلاء الفم بنبراتها القوية .

* * * * * *

مع أبي الحسن : الشريف الرضي

تعريف بالشاعر :

هو أبو الحسن أحمد بن الحسين ويقال له : الموسوي لأنه من دوحة تنتسب إلي موسى الكاظم بن جعفر الصادق وينتهي أصله إلي الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ويلقب بالشريف الرضي ، وكنايته أبو الحسن ، وقد وجدت في مطلع رسالة شعرية إليه من الصابي يقول فيها :

أبا حسن لي في الرجال فراسة * تعودت منها أن تقول فتصدقا

ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ وكان أبوه نقيبا للأشراف الطالبين ، وقد ربي ابنه هذا ونشأه علي الدين والعلم حيث دفع به إلي المتضلعين في اللغة والأدب من أمثال ابن جني والسيرافي ، وقد ظهرت موهبته في الشعر وقد جاوز العاشرة بقليل وبجانب شاعريته كان عالما بارعا له مؤلفات علمية كثيرة منها كتابه في (معاني القرآن)، (ومجازات القرآن)

قال الثعالبي عن شعره : "إنه يجمع إلي السلاسة متانة وإلي السهولة رصانة ويشتمل علي معان يقرب جناها ويبعد مداها .."

ويقول الثعالبي أيضاً :إنه ليس في شعراء عصره من هو أحسن منه تصرفا في المراثي " ؛ لهذا كله لم يكن متذللاً في مدائحه ولامقرطاً ، كما كان عفيفاً في غزله تكثر في دواوينه قصائد الرثاء مما يدل علي شعور فياض بالوفاء وهو متأثر في شعره بالسابقين خاصة المتنبي وأبي فراس .

وقد أجمع الأكثرون علي أنه أشعر قريش لأن شعراء قريش كان فيهم من يجيد القول ولكنه قليل الشعر ، أما الشريف الرضي فمجيد مكثر ، وليس غيره كذلك ، لقد تغزل فعف ، ومدح فلم يسف وهجا دفاعا عن عرض أو انتصافاً لحق فلا فحش ولا

بذاءة ، وقد افتخر لكن فخره تحدث بنعمة الله عليه ، وتعلّقٌ بالنسب الطاهر [1]

في الغزل العفيف للشريف الرضي:

تمهيـــــــد :

القصيدة التي معنا هي واحدة من شعر الشريف الرضي في فن الغزل وهي قصيدة مستقلة لهذا العرض ، وموضوعها تصويرٌ لذكريات ربطت بين الشاعر وفتاة ملكت قلبه وملأت حياته وأحس معها بالأنس ولطالما بادلها الهوي وكان بينهما ذكريات الطهر والعفاف قرب منازل الحي وهذه القصيدة تحكي أنسه بليلة من تلك الليالي التي يناجي فيها الأحبة فيقول :[2]

يا ليلة السفح ألا عُدْتِ ثانيــــة   سقى زَمانَكِ هطّالٌ منَ الدِّيَـمِ[3]
ماضٍ من العَيْش لو يُفدي بَذَلتُ له   كرائمَ المالِ منْ خيْلٍ ومنْ نَعَمِ[4]
لم أقضِ منكِ لُبـاناتٍ ظَفِرتُ بهَا   فهلْ ليَ اليومَ إلا زفرةُ النَّـدمِ[5]
رُدُّوا عليَّ لياليَ التي سـَـلفَتْ   لم أنْسَهُنَّ ولا بالعهد من قِــدمِ[6]

---

[1] راجع من عيون الأدب د محمد كامل الفقي ص٧٥ وما بعدها ..

[2] راجع شرح القصيدة بالمرجع السابق .

[3] السفح :مكان معروف وأسفل الجبل . ألا : حرف استفتاح يفيد الطلب أي هلا عدت . هطال : صيغة مبالغة من هطل المطر أي تتابع والدِّيَم جمع ديمة بالكسر وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق

[4] يفدى ويفتدى ويفادى : أي يعطي شيئا بدله لينقذه كرائم المال أعزه وأطيبه . النعم : قد تسكن عينه ، الإبل والشاه أو هو خاص بالإبل يذكر ويؤنث ، وقال الفراء هو مذكر ، وجمع النعم أنعام وجمع الجمع : أناعيم

[5] لم أقض : لم أبلغ وأتم ، واللبانات : جمع لبانة بضم اللام ، وهي الحاجة من غير فاقة بل من همة . والزفرة اسم من زفر يزفر زفيراً إذا أخرج نفسه بعد مده إياه والجمع زفرات بفتح العين لأنه اسم لانعت وقد تسكن لضرورة الشعر .

[6] سلف يسلف بالضم سلفا بفتحتين أي مضى ، ومن معاني العهدالموثق والذمة والحفاظ . والقِدم بكسر القاف مصدر قدم الشيء بالضم فو قديم وتقادم مثله .

أقول للائم المُهدي ملامتـــه ... ذق الهوى وإن اسطعت الملام لم
وظبيةٍ من ظباء الإنس عاطلـــة ... تستوقفُ العين بين الخَمص الهضم[1]
وأمستْ الريح كالغيرى تجاذبنـا ... علي الكثيب فضولَ الرّيط واللمَم[2]
يشي بنا الطّيبُ أحياناً ، وآونـــة ... يضيئنا البرقُ مجتازاً علي إضم[3]
وبات بارق ذاك الثغر يوضحُ لي ... مواقع اللثم في داج من الظـلم[4]
وبيننا عُـفر بايعتـــها بيــدي ... علي الوفاء بها والرّعي للذمـم[5]
وأكتم الصبح عنها وهي غافـلة ... حتى تكلّم عصفور علـي علم[6]
فقمتُ أنفض برداً مـا تعلّقـــه ... غيرُ العفاف وراء الغيب والكرم[7]
والمستني وقـد جـدّ الـوداعُ بنـا ... كفّاً تشير بقضبان من العنـم[8].

---

[1] عطلت المرأة عطلا وعطولا وتعطلت إذا لم يكن عليها حلي فهي عـاطل والخمص ضمور البطن . والهضم بفتحتين لطف الخصر

[2] الكثيب : التل من الرمل والجمع أكثبه وكثب وكثبـان : الفضـول الزوائد والرّيط والرياط جمع ريطة ، وهي كل ملاءة ذات لفقين كأنها قطعة واحـدة أو الثوب اللين الرقيق ، ومثل الريطة الرائطة واللمم جمع لمة بالكسر وهـي الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن .

[3] يشي بنا ينم علينا آونة:جمع أوان كأزمنة جمع زمـان وهـو الحيـن يقـال: فلان يصنع كذا آونة وآينة إذا كان يصنعه مراراً أو يدعـه مـراراً والمجتـاز :السالك أو مجتاب الطريق وإضم :عنب : الوادي الذي به المدينة المنورة .

[4] البـارق : اللامـع . والثغر : الفم أو الأسنان أو مقدمها . يوضـح يبيـن ويظهر . والداجي : المظلم . والظلم : جمع ظلمـة ضد النور وهـي تجمـع أيضا علي ظلمات بضم اللام أوفتحها أو سكونها .

[5] العفر جمع أعفر وعفراء وهما الظبي والظبية تعلو بياضهـا حمـرة وإنمـا سكنت الفاء لضرورة النظم . وبايعتها : عاهدتها واليـد مـن معانيهـا القوة . والعي للذمم: الحفظ للعهود .

[6] العلم : الجبـل .

[7] نفض الثوب والشجر من باب نصر : حركـه لينتفض ونفّضـه بالتشديد للمبالغة . والبرد :بالضم ثوب مخطط والجمع أبراد وبـرود . والغيب : كل ما غاب عنك .

[8] الجـد بالكسر : الاجتهاد فـي الأمـر والمضـارع بكسر العين وضمها . والقضبان بضم القاف وكسرها جمـع قضيـب وهـو الغصـن والعنم بفتحتيـن شجر لين الأغصان يشبه به بنان الحسان . وبنان معنّم أي مخضوب .

ثم انثنينا وقد رابت ظـــواهرنـا وفي بواطننا بُعدٌ من التهـــم[1]
يا حبذا لمّة بالرمل ثانيــــــة ووقفة ببيوت الحي من أَمَــم[2]
وحبذا نهلـة من فيك بـــاردة يُعدي علي حرّ قلبي بردهـــا[3]
دين عليك فإن تقضيـه أحـي به وإن أبيت تقاضينا إلي حكـم[4]
عجبتُ من باخل عني بريـقته وقد بذلت له دون الأنام دمـي[5]
ما ساعفتني الليالي بعد بينهـم إلا بكيت لياليـنـا بذي سلـم[6]
ولااستجدفؤادي في الزمان هوي إلا ذكرت هوي أيامنا القـــدم[7]
لا تطلبن لي الأبدال بعدهـــم فإن قلبي لا يرضـي بغيرهـــم[8]

تحليل وتعليق

(أ) **الأفكار العامة :**

يمكن تقسيم ما اقتطفناه من أبيات الشريف الرضي إلي ما يأتي (١-٥) يتذكر الشاعر ليلة قضاها مع الأحبه بالسفح وظل عالقاً بها وعلي ظماً للإمتاع بها وهو يدعوا لعهدها بذلك الدعـاء القديم الموروث أن يسقيه الغيث ، وهو يتمني أن يفدي ذلك العهد ، ولو صح ذلك لضحي في سبيله بما يملكه من مـال أو إبـل أو شـاه أو خيل أو غير ذلك فإن المال لا يجني له من اللذة ما يجنيه من لقاء

---

[1] انثنينا: انصرفنا . رابت ظواهرنا : أوهمت الريبة وهي التهمة
[2] حبذا الأمر: هو محبب جعل حب وذا كلمة واحدة .ولمّة: جمعه
[3] النهلة الشربة الأولي . وأعداه عليه : نصره وأعانه وقوّاه .
[4] الحكم بفتحين الحاكم .
[5] الريق الرضاب وماء الفم والريقة أخص منه الأنام جملة الناس .
[6] ساعفه ساعده أوواتاه في مصافاة ومهاونة والمكان المساعف القريب. والبين البعد وذوسلم واد ينحدر علي سوق الذنائب وهو قرية باليمن تقع دون زبيد .
[7] استجد الشئ وأجده وجدده صيره جديداً .
[8] الأبدال : جمع بدل وهو الخلف منه ، وبَدَلٌ وبِدْلٌ لغتان كمثل ومِثْل وشبَه وشِبْه ونكَلٌ ونِكْل قال أبو عبيدة لم يسمع في فعَل وفِعْل غير هـذه الأحـرف الأربعة (اللسان/بدل)

الأحبة . وهو يذكر أنه لم يشبع من لقاء الأحبة فهو شديد اللهفة ، عميق الأسي وهو يتمني اللقاء فلربما زاده شوقا وشأن المجبين أن يعودوا بالوصال أكثر ظمأ ومن ثم فهو في زفرات حارة يتجرع كأس الندم ، إنه سيقضي عمره في حسرة ، علي لقائهم وان دنا لا يبلغ مداه .!

وهو يهيب في القوم – إن كانوا فاعلين – أن يردوا عليه لياليه الخوالي فما كان له أنْ ينساها ولا يفتر عن ذكرها .

ثم يرد علي من يلومه في حبه فيقول له :

(ذق الهوى وإن استطعت الملام لم) أي لو عرفت الهوى فلن تلوم محبا ، فكم ذا يلاقي الشجي من الخلي ! ولله در من قال :

لايعرف الشوق إلا من يكابده ●ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقال الآخر :

ومما زادني في الناس بغضاً ●شكايتي من الخسيس إلي الخسيس

(٦–٨) هي وقفة عند جمال محبوبته ، فرب حسناء لها من الجمال ما للظباء من رشاقة القد ، وضمور البطن ، ولطف الخصر ، فأغناها ذلك عن التحلي بذهب أو فضة سعدنا بها وهبت الريح من حولنا تجاذبنا فضول أثوابنا وتعبث بما سال من لِمَمنا فعل الغيور مما بيننا من الوجد واللقاء .

وإن شذا الطيب الذي يعبق بالمكان فيدل علي مكاننا فكأنه يفعل ما يفعل الواشي كما كان يلمع البرق في مكاننا فيهدي الناظرين إلينا وكذلك يبرق ثغرها المشرق فينير حولها فأهتدي إلي فمها .

(٩–١٣) وهي تحكي قصة اللقاء والطهر والوفاء ، فهذه الحسناء علي الرغم من أنها تحاكي الظبية جمالاً وعلي الرغم من شوقي إليها وقد طال فلمْ أكن ضجيعها في إثم ولا ريبة إن حبنا حب روح لا حب جسد كان حباً عفيفا ، وقد أكدت لها العهد علي الوفاء وللشرف لا أهفو لدنس ولا مأثم وهكذا كان ليل الوفاء والاستمتاع الطاهر ولهذا كانت غفلة حتي آذن الصبح بتغريد

العصفور بينما كنت حريصا علي كتمان الصبح عنها ونهضت أو دعها فالمتنبي كفا تحكي أصابعها المخضبة أغصان العنم .
ثم عدنا مـن مغـاني الأنس وانثنينا عن مراتع الإسعاد ظاهرنا مريب وباطننا عفٌ كريم .
(١٤- ١٦) عود علي بدء فما أجمل تلك الذكريات وما أطيب أن تعود ثانية بوقفة معك ايتها الحبيب قرب منازل الحي لنمـلأ عيوننا وقلوبنا بالأنس كم أتمنى أن أستمتع بنهلة من فمك تُعينني علي ما أعانيه من الوجد إنه دين لي عليك وفي قضائك لي به حياة وإن لم تشائي قضى به الله ، وهو خير الحاكمين .
ثم يعجب لحبيبة تضن عليه بريقها بينما هو يجود لها بروحه ويبذل لها من دون العالمين دمه راضيا ثم يقول : إنه يحيى في ذكرى أحبته ولاينسى عهدهم فبكاؤه عليهم دائم ووجده بهم هائم وما يصادف فؤاده هوى جديداً بعدهم إلا أثار شجونه عليهم وحرك في فؤاده الصبابة والوجد ،، إنه سيعيش وفياً لهم رغم ما بينهم من بعد مشتاقاً لهم مشدود الفؤاد إليهم فهو لايرضى أحداً بديلاً عنهم ولاهو يُفتن بغيرهم .

(ب) <u>التـذوق الأدبـــي :</u>

١- استطاع الشاعر أن يشدنا لنعايشه ذكرياته وأن يرجع بنا إلى ماضيه السعيد خاصة حينما نحب ونلتقي بالأحبة فلا يُجرح بينهم شرف ولايعتدى فيهم علي عفاف !
إن القارئ ليحس بأسى قلب شاعرنا الذي لم يقض لبانات ظفر بها كما يحس بلقائه الطاهر واستمتاعه النقيّ البريء وتعلقه بتلك الليلة المنصرمة وتمنيه لعودتها وبمناجاته لبيوت الحي وتمنيه أن يرشف من فم الحبيب رشفة تذهب بلهيب أحشائه ثم يقودنا إلي محكمة بين متقاضيين إذ أن له ديناً عندها فإما أن تقضيه وإما أن يقضي به الله الذي ليس عنه جور
<u>والأفكار هنا واضحة :</u> ولعل ذلك راجع إلي طبيعة فن الغزل الذي يتطلب الوضوح ولا يناسبه الغموض فلا يليق أن يسوق

المحب أفكاراً غامضة أو من وراء حجاب ؛ لذلك جاءت الأفكار بما يشبه الارتجال فاتسمت بالوضوح والسلاسة والسطحية .

٢- **والأفكار وإن كانت ذاتية فردية** إلا أننا يمكن أن نعتبرها **إنسانية عامة** لأنها تقرر مبدأ العفة بل إن بريق الطهر كان هاديا للمحبين والعقلاء ، فما أحوجنا لأن نحب ونعف وأن نكون أوفياء في عهودنا ، ونسلم عواطفنا للريح تميل حيث تميل ، فأفكار القصيدة راقية وضرب لنا صاحبها مثلا لعفة المحبين ولا عجب فهو الشريف الرضي الموسوي المنتسب إلي موسي الكاظم بن جعفر الصادق وينتهي نسبه إلي الإمام الحسين بن علي كرم الله وجهه ، وهكذا انعكست شخصية الشاعر وبيئته الدينية علي الأفكار .

٣- **وفي الأفكار تجديد وتقليد** ، كما أن فيها شيئا من المبالغة ، فهو يصور الريح حين تمر بينه وبين محبوبته بأنها كالغيرى مما بينهما من سعادة ومتعة ، وهو يجعل الطيب واشيا بينهما ، وهذه جدة وطرافة دون شك ، وهو يصور الزمان مما يفدي ، والملامة مما يهدى ، وهي صورة بيانية وأسلوب تهكمي طريف .

والمبالغة فيها مقبولة فما علي المحبين لوم وليس هناك حد للمتغزل حينما يطلق العنان لخياله ، لعله يشفي في الخيال صدره وفي الغناء مواجعه

٤- **أما أسلوب القصيدة:** فقد وفق الشاعر في اختيار معظم ألفاظه الموحية وتعبيراته المناسبة لمقام الغزل أو للوعة المحبين فمثلا افتداء الماضي بكرائم المال والتعبير عن السعادة باللبانات وتجسيد الملام ، وجعله الريح غيورا ، والطيب واشيا ، وبروق الثغر يضيء حوله ..كل هذه التعبيرات دون شك موحية ومعبرة عن المعني ومناسبة للمقام

وقد شاعت الصور البيانية في القصيدة مما يشهد بحذقه ومهارته كجعله الطيب واشيا ، والعصفور متكلما ، وقضاء دينها عليه حياة وكذلك افتداء الزمان ، وإهداء الملامة ، والكناية عن طلوع

الصبح بتكلم العصفور ، وذلك كله مما أثار التشوق والانتباه إلا أن جلاء الأفكار وسذاجتها أدي إلي كلمات غير شاعرية من مثل (تكلم العصفور) بدلا من تغريده ، وقوله :(لا تطلبن لي الأبدال) فكلمة الأبدال غير شعرية ، وكذلك كلمة (ثانية) في قول: (ألا عدت ثانية) و(بالرمل ثانية) فهي كلمات لها من الجفاء ويبس الملمس أي أنها كلمات عقلية بحتة تناسب الأسلوب العلمي لا الأدبي العاطفي .

كما أدي ارتجال الأفكار إلي عدم العناية بترتيبها فالجمل لا تصل إلي حد التآخي وقوة النسج وأدي ذلك إلي مأخذ ثالث وهو أن معناه يفوق لفظه أو أن فكرته–علي العموم– تسمو علي الأسلوب

٥– وأما عاطفة الشاعر فهي واضحة الصدق فالقارئ يحس بالصدق ولربما أدي ذلك إلي مشاركة الشاعر في تأثر وجدانه باللقاء وتلازم الروحين في طهر وعفاف وبعد عن التهم وإن رابت ظواهرهما .

* * * * * *

الشاعر الفيلسوف : أبو العلاء المعرّي

تعريف بالشاعر:[1]

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ولد في يوم الجمعة الموافق ٢٨ من ربيع الأول سنة ٣٦٣ ه في معرة النعمان أي أنه ولد بعد وفاة أبي الطيب المتنبي بتسع سنوات . ويُعَد أبو العلاء المعري خاتمة شعراء العصر العباسي الثاني ، كما كان أبو الطيب المتنبي فاتحته !

وكان والد أبي العلاء قد كناه بأبي العلاء ، فلما شب شاعرنا عن الطوق كره تلك التسمية أو تلك التكنية بينما أحب أن يطلق عليه (رهين المحبسين) " العمي – الدار " وقد سمى نفسه بذلك بعد أن عاد من بغداد وأراد اعتزال الناس وكان له محبس ثالث هو جسمه الذي حبست فيه روحه ، وقد عبّر عن ذلك كله في قوله :

أراني في الثلاثة من سجوني * فلا تسأل عن الخبر النّبيث [2]
لفقدي ناظري ولزوم بيتـــي * وكون النفس في الجسم الخبيث

وكان أبو العلاء قد نشأ في أسرة كريمة تجمع بين العلم والجاه أو الأدب والسلطان فقد كان أبوه من أهل الأدب وتولي جـــده قضاء المعرة ، وكانت أمه وأخواله من أسرة وجيهة تعرف بآل سبيكة ، وكانت معرة النعمان في ذلك الوقت تحت سيطرة الدولة الحمدانية وأميرها أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني أصيب الشاعر منذ طفولته وفي سن مبكرة بالجدري فلم

---

(١) راجع أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري تأليف يوسف البديعي ص/ط وما بعدها مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٤٤م وكتاب :مع أبي العلاء في سجنه للدكتور طه حسين ط١٢ دار المعارف القاهرة .

(٢) النبيث الرديئ الخبيث أو تراب البئر إذا حفرت .

يكد يتم الثالثة من عمره حتى ذهب الجدري بيسرى عينيه وغشي يمناها بياض فكف بصره وهو صغير وقد كان لذلك أثره العظيم في تحويل مجرى حياته ، فقد أخذ يُلقن النحو واللغة إلى جانب الدروس التي كان يتلقاها من العلماء والقضاء والشعراء في محيط أسرته ثم علماء بلدته ثم رحل به أبوه إلي مدينة حلب ليسمع اللغة والأدب من علمائها وأدبائها – يحدوه في ذلك رغبة جامحة وقلب ذكي واستعداد للعلم موروث فهو القائل " ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً ونسيته وأنا أحمد الله على العمى كما يحمده – غيري على البصر وقد اتفق المؤرخون على أنه قرض الشعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره وما بلغ العشرين من عمره حتي اكتملت ثقافته وأصبح علماً من علماء اللغة وأدبها فقد استفاد دون شك – من تجواله وترحاله بين البلاد طلبًا للعلم وكان والده قد تولى القضاء بحمص ثم توفي بها أو بمعرة النعمان وذلك في سنة ٣٧٧هـ أو في سنة ٣٩٥هـ ولقد كان لموته فاجعة في نفس أبي العلاء الشاعر حيث تركه يصارع الدنيا بعاهته وربما كان هذا لأبي العلاء أن يرحل إلي بغداد لأن معرة النعمان ل تحقق له شهرة أو مزيدا من العلم فارتحل إلي بغداد سنة ٣٩٨ هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمرة .

ولقد كانت تلك الرحلة حداً فاصلا بين شطرين من حياته ففي بغداد نزل علي شط نهر دجلة واطلع علي فلسفة الهنود واتصل بالرهبان فأخذ عنهم فلسفة اليونان ثم غادر بغداد سنة ٤٠٠هـ ويشاء القدر أن يعد له فاجعة أخرى هي وفاة أمه التي ودعت الدنيا في غياب ولدها وكان لمتها أيضا أثر في نفس أبي العلاء ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

مضت وقد اكتملت " فخلت أني * رضيع ما بلغت مدى الفطام

ولقد ألزم نفسه منذ ذلك الحين بسجن رابع وهو زهده في مطعمه وملبسه بل والزهد في كل متع الحياة ولذاتها ، فلم يلبس إلا خشن

الثياب ولا يطعم سوى العدس والتين أومن نبات الأرض ماعدا ذلك قد حرمه علي نفسه ، فحرم عليها أكل لحوم الحيوان وما أنتجه من اللبن والبيض ، كما حرم عليها أكل السمك وعسل النحل ، واقتصر علي النبات رحمة بالحيوان ، ويبدو أنه اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود ، فذهب مذهبهم رفقا بالحيوان وتجافيا عن إيلامه .

ولعل موت أمه في غيبته وهو في طريق عودته من بغداد دون أن يراها ، وكذلك موت أبيه وأخيه وفقد عينيه ، و شدة فقره قد وسوء معاملة الناس له كل هذا أكمل له الأسباب التي دفعته إلي الزهد والاعتزال وهو ما وافق غريزته التي عبر عنها بقوله عن نفسه : " إنه وحشي الغريزة أنسي الولادة "

لقد فرض علي الزهد علي نفسه حتى سمي (صائم الدهر) وظل علي هذه الحال نحو نصف قرن من الزمان فلم يرجع عن قراره وزهده ، حتى وهو في مرض الموت قيل إن الطبيب وصف له لحم فروخ غذاء وأتوه به فلمسه وقال : " استضعفوك فوصفوك هلا وصفوا شبل الأسد " ؟ وأبى أن يذوقه ، وكان مما قال :

أنا صائمٌ طول الحياة وإنما * فطري الحلم ويوم ذلك أعيد

وقد اتهم أبو العلاء بالزندقة والإلحاد وقد اختلف المحللون لهذه التهمة ، وربما تكون حقيقية في بعض أطوار حياته . علي أن بعض التهمة يرجع إلي كثير من غريب ألفاظ أبي العلاء ، وبعد مراميها ، ورمزيته التي كان كثيرا ما يستخدمها .

مكانته الاجتماعيــــة :

والجدير بالذكر أن نقف عند إنسانيته : فلم يكن بمقدوره أن يعزل الناس عنه ويمنعهم من الوصول إليه أو يحجبهم عنه ، فقد وفدوا عليه جماعات وفرادى ينهلون من علمه وأدبه ، وهكذا توافر عنده ذلك الجانب الاجتماعي برغم ما أخذ نفسه به فهو القائل :

النَّاسُ للناس من بدو وحاضرةٍ * بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

وقال أيضاً :

ولو أني حُبيت الخلد فرداً * لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي * سحائب ليس تنتظم البلادا

ولقد قرض الشعر في حداثته – كما مر – بيد أنه لم يجعله وسيلة للكسب ولم يكن من دأبه أن يمدح إنساناً رغبة في ثوابه أو طمعاً في ماله كما حدثنا عن ذلك في كتابه (سقط الزند) وكان يرتزق من حصة في وقفٍ تدرُّ عليه ثلاثين ديناراً في العام ينفق نصفها على من يخدمه

مكانته العلمية

لقد وفد الناس على أبي العلاء من هنا وهناك ينهلون من علمه وفضله ، وكان كريماً في عطائه ، صاحب آراء جريئة في الدين الأمر الذي جعل الناس تختلف في الحكم عليه ، فقد كان متشائماً يكره الحياة زاهداً فيما عند الناس ، وقد اتهم بالكفر والزندقة والتشكيك في الدين والمجادلة في نظام الكون وحكمة الخالق ، وهو يقبح الزواج ، ويعد النسل جناية ، ويرى ألا تعمل المرأة غير الغزل والنسج وخدمة البيت ، وهو يعترف بالخلق ، ويؤمن بالبعث ، والدين عنده أن يعمل المؤمن خيراً لا أن يكثر من الصلاة والصوم ، ولهذا كان شديد الهجوم على الفقهاء المتظاهرين بالدين فيقول مثلاً :

ويعجبني فعل الذين ترهبوا * سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

ويقول أيضاً :

سبح وصلِّ وطف بمكة زائرا * سبعين لا سبعاً فلستَ بناسك

جهل الديانة من إذا عرضت له * أطماعه لم يلف بالمتماسك

ويقول عن منافق :

يُحرِّم فيكمُ الصهباءَ صبحاً * ويشربُها على عمدٍ مساءَ

ولـه آراء فـي الحـج والميراث والحدود والغيبيـات والسـمعيات. الأمر الذي أثار حفيظة أهل الدين واللغة والغيورين علي الإسلام ولقد حدث الرُّواة عن ملكاته بما يشبه الأساطير ، ومما يحكي في ذلك أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير فسافر جماعة من أكابرهم ليمتحنوه فقال لهم وهل لكم في المقافاة ؟ فجعل كل واحد ينشد بيتاً وهو ينشد من حفظه علي قافيته حتى فقد حفظهم فقال أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتاً عند الحاجة ، إليه علـي القافيـة التي يريد ؟ قالوا فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشد واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه علي قافية البيت حتى قطعهم جميعا !.

وهكذا طبقت شهرته الآفاق إذ كان في القرن الخامس بحلب مثل (ابن خالويه) في " القرن الرابع " كما طار صيته خارج العراق والشام بعد أن اتصلت الرسائل بينه وبين عظمـاء الإقليمين حتى لقد رحل (الخطيب التبريزي) إليه من خراسان ماشياً . ولقد خلف أبو العلاء وراءه تراثاً أدبياً أفاد العربية ومن ذلك :

١- ديوانه (سقط الزند) وهو يجمع شعره في شبابه وتراه فيه واضح التكلف كثير المبالغة والتقليد للمتنبي كما جاري شعراء عصره في تكلف البديع واستعمال الغريب .

٢- (اللزوميات) وهو ديوان عظيم جمع فيه شعره في شيخوخته أي بعد زهده وعزلته وقد التزم في قافيته بما لا يلزم في الوزن والقافية وضمنه كثيراً من آرائه .

٣- مؤلفات نثرية ومن أشهرها : رسالة الغفران ، وكتاب الأيك والغصون ، وملقي السبيل وزجر النابح وغيرها . وحق لـه أن يقول :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه...لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وفاتــــه :

ظل الشاعر ملتزماً بما عقد عليه العزم مستسلما حتي وافاه أجله في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ بعد مرض دام ثلاثة أيام وقد أوصي أن يكتب علي قبره :

" هذا جناه عليَّ أبي وما جنيتُ على أحد "

ولقد وقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه وكان أعمقهم تعبيراً في رثائه له الأمير (أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري) الذي بكي فيه علمه وزهده وعفته وتقواه وكان مما قال :

العلم بعد أبي العلاء مُضيَّع * والأرض خالية الجوانب بلقعْ
ما كنتُ أعلم وهو يوضع في الثرى
* أن الثرى فيه الكواكب تُودع
مات النهى وتعطلت أسبابه * وقضى التأوُّب والمكارم أجمع
تتصرم الدنيا ويأتي بعده * أممٌ وأنت بمثلهِ لا تسمعْ

في الفخر لأبي العلاء المعري : ♠

– ١ –

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائل (١)
أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ ... يُصدقُ واشٍ أو يُخيِّبُ سائل (٢)
أقلُّ صدودي أنني لك مبغضٌ ... وأيسر هجري أنني عنك راحل
إذا هبت النكباءُ بيني وبينكُم ... فأيسر شيء ما تقول العواذل (٣)

– ٢ –

تُعَدُّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ... ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفضائلُ

♠ ديوانه: راجع شروح سقط الزند القسم الثاني ص ٥١٩ وما بعدها القصيدة السادسة عشرة ط/دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦

(١) المجد : العز والشرف،، والحزم : ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة ، والنائل: العطاء ، والإقدام : الشجاعة .

(٢) مارست : عالجت ، والخفية : المسألة الغامضة التي خفيت واستترت .

(٣) النكباء : الريح تهب بين ريحين ، والعواذل : اللائمون .

الأنام الخلق ، وطلت : تفوقت ، والطوائل : الثارات

كأني إذا طلت الزمانَ وأهلَهُ رجعت وعندي للأنام طوائلُ[1]
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم بإخفاء شمس ضوؤها متكاملُ
يهم الليالي بعضَ ما أنا مضمرٌ ويثقل رضوى دون ماأنا حاملُ[2]
وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ
وأغدو ولو أن الصباحَ صوارمٌ وأسري ولو أنّ الظلام جحافلُ[3]
وإني جَوَادٌ لم يُحل لجامُهُ ونضو يمان أغفلته الصيَاقلُ[4]
وإن كان في لبس الفتي شرف له فما السيف إلا غمده والحمائلُ[5]
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتي ظُنّ أنيَ جَاهلُ[6]
فواعجباً كم يدّعي الفضلَ ناقص ووا أسفا كم يُظهر النقصَ فاضلُ[7]
وكيف تنام الطير في وُكناتِها وقد نُصبتْ للفرقدين الحبائلُ[8]

– ٣ –

ينافسُ يومي فيَّ أمسي تشرّفا وتحسُد أسحاري عليَّ الأصائلُ[9]

---

(1) الأنام الخلق ، وطلت : تفوّقت ، والطوائل : الثارات
(2) يهم الليالي : يحزنها ويقلقها ، ورضوى : جبل ببلاد العرب يقع بين المدينة وينبع .
(3) غدا غدوا من باب قعد : ذهب غدوة ، والغدوة مابين صلاة الصبح وطلوع الشمس ، وأسري : أسير ليلاً ، وصوارم : سيوف ، والجحافل : جمع جحفل وهو الجيش العظيم .
(4) الجواد : الفرس ، نضو يماني : سيف يمني ، ونضو و منتضي أي : مستل من غمده ، والصياقل : جمع صيقل وهو صانع السيف .
(5) اللبس بكسر اللام وضمها واللباس والملبس كل ما يلبس ، وغمد السيف: جرابه ، والحمائل جمع حَمالة وهي ما يعلق بها السيف .
(6) فاشيا : منتشرا ، وتجاهلت : ادعيت الجهل
(7) واعجبا ووا أسفا : انقلبت ياء المتكلم ألفا .
(8) وكنات الطير : الأماكن التي تأوي إليها ، ومفردها (وكْنٌ) ، والفرقدان : نجمان في السماء .
(9) السحر : بفتحتين : قبيل طلوع الفجر وبضمتين لغة والجمع أسحار ، والأصيل : العشيُّ وهو من بعد صلاة العصر إلي الغروب ، والجمع : آصال وأصائل .

وطال اعترافي بالزمان وصَرّفه   فلستُ أبالي مَن تغول الغوائل [1]
فلو بان عضُدي ما تأسّف منكبي   ولو مات زَندي ما بكته الأنامل[2]
إذا وصَفَ الطائيَّ بالبخل مادرٌ   وعيَّر قسّـــاً بالفهاهَةِ باقـــل[3]
وقال السُّها للشمس أنت ضئيلـة   وقال الدُّجى ياصبحُ لونك حائل[4]
وطاولتِ الأرضُ السماءَ سفاهة   وفاخرتِ الشُّهبُ الحصى والجنادل[5]
فياموتُ زُرْ إن الحياة ذميمـــة   ويا نفـسُ جِدّي إن دهركِ هازل
إذا أنت أُعطيت السّعادة لم تُبَل   وإن نظرتْ شزراً إليكَ القبائل[6]
فإن كنت تبغي العزَّ فابغ توسُّطا   فعند التناهي يقصُـرُ المتطاول[7]
توقّى البدورُ النقص وهي أهلـة   ويدركها النقصانُ وهي كوامل[8]

---

(1) صروف الزمان : أحداثه ، والغوائل : الدواهي ، وغالته : أهلكته .
(2) بان : انفصل والعضُد : مابين المرفق والكتف ، والمنكب : مجتمع رأس العضد والكتف ، والأنامل : أطراف الأصابع .
(3) الطائي هو حاتم الطائي الجوّاد المشهور وأحد شعراء الجاهلية ضرب به المثل في الجود والكرم ، ومادر : لقب رجل من بني هلال اسمه مخارق ، ضرب به المثل في البخل لأنه سقي إبله وبقي في الحوض قليل من الماء فأحدث فيه حتي لا ينتفع إنسان من بعده ، وقُس : هو قُس بن ساعدة الأيادي أخطب العرب قاطبة ، والفهاهة : العي ، وباقل بن عمرو الإيادي ضرب به المثل في العي ، بلغ من خبره : أنه اشترى غزالا بأحد عشر درهما، ولما سئل عن ثمنه عجز عن الإجابة فمدَّ أصابع كفيه وأخرج لسانه ليكملها أحد عشر . !
(4) السها : كوكب خفي صغير مع أوسط بنات نعش يسمى أسلم ، والدجي: الظلام ؛ لونك حائل : متغير .
(5) الشهب : النجوم والجنادل الحجارة الكبيرة .
(6) لم تبل : لم تبال ولم تكترث ، ونظرت شزراً إليك : نظرت في إعراض كنظر المباغض .
(7) ابغ : اطلب والتطاول : صاحب الطول وهو الفضل والمنــة .
(8) توقى : تتوقى وتتجنب ، والبدر : القمر عند تمامه .

تحليل وتعليق :

سبيل الفخر :

الأبيات من (١-٤) وفيها يجمع الشاعر الأسباب التي أكسبته المجد والفضائل ألا وهي العفاف والإقدام والحزم ثم يتعجب بقوله : كيف يتوهم أني أصدق واشياً يزين المحال ، وأخيب سائلا يرجو النوال وقد مارست الأيام وعلمت كيف تقلبها بالأنام ! والعرب تسمي كل من نمق الباطل وزينه واشيا ، واشتقاقه من قولهم : وشيت الثوب أشيه[١]

ثم يوضح أقل الصدود عنده وأيسره وهو الهجر والرحيل وهذه غاية الصدود ، وإنما ذكر هذا لأن الرجل قد يصد عن صاحبه من غير أن يبغضه فإذا انتهت به الحال إلي أن ينطوي له علي بغضه وحقده فتلك نهاية الإعراض والصدود ، وقد يهجر الرجل صاحبه ولا يرحل عنه فإذا انتهت به المهاجرة إلي اختيار الرحيل فقد بلغ من مهاجرته الغاية والنهاية .

ثم يعرض للريح النكباء وهي التي تهب منحرفة بين مهبي ريحين أو لأنها نكبت عن الجهات الأربع وهي أربع وما بين كل ريحين نكباء ، وقد خص النكباء بالذكر لأنها أسرع من غيرها هبوبا ، ويشهد لذلك قوا القائل :

ولكننا في مهْمة تُعجل الخُطا ✱ علي وجل هوج الرياح به نُكبا

ويكون المعني علي ذلك كله : إذا بعُد ما بيني وبينكم فأهون ما يقال خلفي :البيت ....

حديث عن النفس :

الأبيات من (٥-١٥) هي حديث عن النفس فهو يمدح نفسه بما يشبه الذم مبالغة ، فيذكر أنه لاعيب فيه البتة إلا أن يعتقد قوم أن

---

[١] راجع شروح سقط الزند القسم الثاني ط/دار الكتب سنة ١٩٤٦

الكرم عيب ، فيعد ذلك في ذنوبه ومعايبه ، ووجه ذلك أن الخسيس الطبع لما كان مضادا للكريم الطبع صار يعتقد في المحاسن قبحا والعكس صحيح ، وذلك لأن خسته ونقصان فطرته قد صوّرا في نفسه الأمور بخلاف الحقيقة ، كما روي أن رجلا قال للأحنف بن قيس " ما أبالي أمُدحتُ أم هجيتُ " فقال الأحنف : " استرحت يا أخي من حيث تعب الكرام !

وهو في البيت (السادس) يقرر ما سبق في البيت المتقدم ، فهو إذا طاول الزمان – بأن كان بينهما عداوة وشحناء – فاقة وتفوق عليه ، ثم يؤكد ذلك بقوله :" وقد سار ذكري في البلاد .." والباء في قوله بإخفاء شمس ، تتعلق بمضمر تقديره : من يكفل لهم بإخفاء شمس ؟ ، وهو بهذا يؤكد لنفسه الحزم ، كما أكد الكرم والجود من قبل ويكون المراد : أنه تفوق علي الناس وعلي زمانهم بعلمه وأدبه وأتي بالغريب المعجز من الأمور ، وقد تصديَ الكل لمحاربته وكأنهم يطلبون ثأرا عنده ، ولن ينالوا منه شيئا بعد ما طبقت شهرته الآفاق وعرفه القاص والداني فهو كالشمس ظهورا ووضوحا ، وهيهات أن يقدر إنسان علي إطفاء نور الشمس !

وفي البيت(الثامن) يذكر أن يخبّئ في نفسه من الأمور العظيمة والأفكار الجليلة التي لو احتملت الأيام جزءا منه لأهمها وأحزنها ولو تحمل جبل رضوى بعض ما احتمل من علم ومعرفة لناء بحمله ... ثم ينتقل (في البيت التاسع) إلي فكرة جديدة فيقول :إنني وإن سُبقتُ بكثير من العلماء والشعراء والأدباء إلا أنني قادر علي الإتيان بما عجزوا عنه !

ثم يقف عند شجاعته ليوضح أنه لا يرهب شيئا فهو يسير في الصباح ولو سُد الأفق بالسيوف ويسير بالليل لا يخشى رهبته !

وفي البيت (الحادي عشر) يقول : إنني متأهب للقتال كالجواد الملجم استعدادا للوثوب وكالسيف المستل الذي غفل صانعوه عن وضعه في غمده ، ثم يعرض لفضله بشيء من الواقع فيذكر أنه لو كانت قيمة الإنسان في مظهره وملبسه لكانت قيمة السيف في

حمالته وجرابه ولم يقل أحد بهذا وإنما قيمة المرء بأصغريه قلبه ولسانه ؛ ولهذا هو يستطرد إلي حظ العلماء في سوق الجهل فيقول : لما رأيت سوق العلم كاسدة وفضل العلم منكورا ورأيت سوق الجهل رابحة تظاهرت بالجهل لأساير الناس في حياتهم حتي انطلى عليهم الزور وحسبوني جاهلا ، والبيت يتفق مع مثل قديم يقول : " من دخل ظفار حمّر " أي تحدث بالحميرية .
وفي البيت (الرابع عشر) يتعجب من كل فاضل يتظاهر بالنقص مجاراةً للناس وليكون كأحدهم وهو يأسف علي الناقص الذي يتظاهر بالفضل والفضل منه براء .
من أجل هذا هو يسأل -وقد شبه نفسه بنجمين من نجوم السماء فيقول :" إذا كنت مع علو قدري وعظيم منزلي لا أسلم من ذم الناس وعيبهم وسهامهم _ رغم فضلي _ فكيف يسلم غيري وهو لا حول له ولا قوة ؟؟

عودة للفخر :

والأبيات من (السادس عشر وما بعده) عودة للفخر إنه يزداد يوما بعد يوم فضلا لدرجة أن يومه يفاخر أمسه وتحسد أسحاره أصاله لأنه أحرز في الوقتين الآخرين ما لم يحرز في السابقين ، وقد يكون المراد أن يومه الذي يحصل فيه كان ينافس أمسه قبل أن يفارقه فلما انتقل عنه إلي غيره صار أمسه ينافس ذلك الذي انتقل إليه ويؤكد هذا قوله : في القصيدة نفسها :
وقد أغتدي والليل يبكي تأسفا* علي نفسه والنجم في الغرب مائل
ثم يقول لقد خبرت الزمان وعرفت تقلبه وتصرفه ومن أجل ذلك فإني لا أهتم بأحداثه المهلكة ثم يقول :
إنني لو انفصل عضو من أعضاء جسمي أو مات لما تألم من أجله العضو المجاور له ، ثم يقول في الأبيات (١٩-٢٢) : إذا اختلت الموازين، وضاعت القيم وتطاول السفهاء والحمقى علي من هم رمز المكارم وعنوان المحامد ، والحال أنهم لا يصلون

إلـــي مواطـــئ أقدامهـــم – فوصـــف (مـــادرٌ) (حاتمـــا) بـــالبخل ؛ وعير(باقلٌ) (قسًا) بالعيّ وهو أفصح العرب وأخطبهم [1] ، وقـال (السها)– وما أقل شأنه– للشمس العظيمة : أنت صغيرة ضئيلة ، وقـال الليل المظلـم الحـالك للصبح الأبلـج لونـك حـالك متغـير ، وطاولت الأرض السماء علو قدر وارتفاع مكان ومنزلة وفاخرت الحصي الشهب في البريق واللمعان ... إذا : فباطن الأرض خير من ظهرها ، وأصبحت حياتنا ـ حينئذ – تافهـة حقيرة وخليق بالروح أن تفارق الجسد إلي بارئها لتسعد بالحياة الفضلي السـامية – الحياة الآخرة –

وفي البيت (الثالث والعشرين) نقف عند حكمة جليلة استخلصها من تجاريبه في حياته ألا وهي قولـه :" إذا أنت أعطيت السـعادة أي وفقت في عملك وشعرت بالسـعادة فـلا تكترث بشـيء ، ولـو نظر الناس إليك نظرة بغض لأن منشأها الحقد عليك والغيرة منك ثم يتابع حكمته فيقول إذا رغبت في الرفعة فاطلب منزلة وسطي لأن الوصول غلي القمة يعقبه انحدار كالأهلة يزداد ضوؤها يومـا بعد يوم حتي إذا مـا اكتملت بدأ النقصان يطرأ عليهـا شيئا فشيئا .! (فلكل شيء إذا ما تم نقصان)

مناقشة الأفكار :

– ١ –

تعد هذه القصيدة من أبلغ شعر أبي العلاء المعري ، فعلـي الرغم من إنشادها في الحقبة الأولي من حياته إلا أن الأفكار تحتاج إلـي روية وإعمال فكر ، ولعـل أهم الأسـباب إنمـا ترجع إلـي أن أبا

---

[1] قيل إنه عاش ٣٨٠سنة وقال المرزباني :ذكر كثير من أهل العلم أنـه عاش ٦٠٠سنة وهوأول من آمن بالبعث من أهـل الجاهلية وأول توكـا علي عصا أو سيف وأول من قال : أما بعد وأول من كتب مـن فلان إلـي فلان ابن فلان وفي الحديث عنه صلي الله عليه وسلم : رحم الله قسا ،إني أرجو أن يبعثه الله أمة وحده " (خزانة الأدب للبغدادي ج٢ ص٨٣ ، ٩٠) تحقيق عبد السلام محمد هارون ط القاهرة ١٩٨٦م

العلاء قد جارى شعراء عصره في استعمال الغريب للمقدرة الشعرية عنده ، ولذلك وهو كثيرا ما يجنح إلي الفلسفة فتأتي أفكاره عميقة المغزى بعيدة المدى – سواء أكانت قديمة أم مبتكرة– وهي هنا ملهمة مترابطة .

ولعلنا نعجب للشاعر – وقد حرم البصر – وهو يفاخر بشجاعته ويتغنى بنزاله ويزعم أنه لايرهب ولا يخاف ، وهو يسير في الصباح ولو سد الأفق بالسيوف ويسير بالليل ولو كانت له رهبة الجيوش ، وغني عن البيان– في الوقت نفسه – أنه يحتاج إلي من يأخذ بيده ليرشده

وما تلك البراعة – في اعتقادي– إلا تعويض عن ذلك النقص الخلقي –وهو يملك تلك الموهبة الفذة التي تصور المعارك في دقة تفوق ريشة الرسامين وروعة المصورين المبصرين –

– ٢ –

<u>وأفكار الشاعر ذاتية بحتة :</u> فهي صورة لتجربة شعرية انفعل الشاعر بآلامها وعاشها حسا ووجدانا فانعكست عليها ملامح شخصيته المتشائمة كما اتضحت فيها نفسيته المتبرمة وفلسفته في الحياة أيما وضوح .

– ٣ –

من أجل هذا :جاءت <u>عاطفة الشاعر صادقة</u> تشد القارئ لمشاركته في محنته صادقة وهو يتحدث عن انصراف الناس عنه لسوء مظهره ورثاثة ثيابه غير عابئين بعلمه وأدبه وسعة أفقه ووفرة معارفه وما أظلم الناس حينما يجعلون المقاييس والمعايير مبنية علي المظهر الخلاب والرواء الخادع منصرفين عن النظر إلي تقدير الحقائق وهاهو ذا يرد عليهم بقوله :

وإن كان في لبس الفتي شرف له* فما السيف إلا غمده والحمائل

والقصيد يغلب عليها التقليد للسابقين : والجري علي سنتهم ولا سيما تقليد أبي الطيب المتنبي فالقارئ للقصيدة - لأول وهلة - يري أنها تقليد للمتنبي ،حيث تضمنت بعض حكم المتنبي وآرائه ونظرته في الحياة ، ونظرته للناس عامة ، ولأعدائه خاصة ! نعم : لقد اقبل أبو العلاء على شعر المتنبي إقبالاً ما عرف من شاعر آخر فتأثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية ، فالمتنبي مثلا يقول : (١)

تمتع من سُهادٍ أو رُقادٍ ❊ ولا تأمل كرىً تحت الرِّجام
فإن لثالث الحالين معنىً ❊ سوى معني انتباهك والمنام

نرى شبها لهذه الصورة في لزوميات أبي العلاء وحين يغمرنا أبو العلاء بفلسفته التأملية حينا وزهده في الحياة حينا ثانيا وذمه للمرأة ، وكشفه لألاعيبها النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع حيناً ثالثا ، وحين يدعونا إلي ترك النسل لتعطيل العالم ، نجده إنما يحاكي أستاذه المتنبي حين يقول :(٢)

هل الولدُ المحبوبُ إلا تَعِلَّةٌ ❊ وهل خلوة الحسناء إلاّ أذى البعل؟
وما الدّهر أهلٌ أن تُؤَمّلَ عنده ❊ حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلي النسل

وفلسفة الموت كذلك ربما كانت صدي لقول المتنبي في الموت:

أنبكي لموتانا على غير رغبةٍ ❊ تفوتُ من الدُّنيا ولا موْهبٍ جَزْلِ
إذاما تأملتَ الزمان وصرفه ❊ تيقنتَ أن الموتَ ضربٌ من القتل

وقوله أيضا (٣)

يُدفّنُ بعضُنا بعضا وتمشي ❊ أواخِرُنا علي هام الأوالي

ونعود إلي القصيدة التي نحن بصددها فنري أبا العلاء يتحدث عن حساده ، ومنكري فضله ، وهو يخاطبهم مفتخراً بنفسه معجبا بها معدداً فضائله ومكارمه شديداً بمكانته مبيناً عظيم قدره ولم

---

(١) ديوان المتنبي ص ٤٨٥ط بيروت
(٢) ديوانه ص ٢٨١ .
(٣) ديوانه ص٢٦٨ .

يفتـه أن يتحدث عن تحدي الأيـام وتصدّيهـا لحريتـه والتضييـق عليــــه شأنه فـي ذلـك شـأن أسـتاذه المتنبــي – إن صـــح هــذا التعبير – ولكنه لا يعبأ بها ولا يكترث فيقول :

وطال اعترافي بالزمان وصرفه * فلستُ أبالي من تغول الغوائل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي *ولو مات زندي ما بكته الأنامل

وقد سبقه المتنبي إلي هذا المعني ، وهو يقول : [1]

وهــان فمـا أبالـــي بالــرزايا * لأنـــي ما انتفعت بأن أبـالي

وقول أبي العلاء :

لدي موطن يشتاقه كل سيدٍ *ويقصر عن إدراكه المتناول

شبيه بقول أبي الطيب المتنبي :[2]

ويجهل أني مالك الأرض معسر *وأني علي ظهر السّماكين راجل

وقد يكون هناك أكثر من سبب جعل مـن المعـري مقلـداً للمتنبـي وهذا ما جعل الدكتور طه حسين يعقد بينهما (موازنة) فيقول :

" وأما أبو الطيب فقد نشأ وعاش في عصـر قريب من عصـر أبــي العلاء مشبه له في أكثر خصاله ، وقد شارك أبا العلاء فــي ذكـاء القلب ونفاذ البصيرة وفي التفوق والنبوغ ، وشاركه فـي الشـعور بفسـاد الحيـاة العامـة للمسلمين مـن جميـع أنحائهـا وشــاركه فــي الشعور بتفوقه وامتيازه وفي اعتداده بنفسه ولكنه لم يشـاركه في هذه الآفة التي اضطرتـه إلـي العجـز وأخذتـه بـالوحدة وفرضـت عليه الاعتزال ومع أن أصـول الفلسفة العلائيـة توشـك أن توجـد كلها في شعر أبي الطيب.. ومـع أن أصـول الفن العلائـي يوجـد أكثرها في شعر أبي الطيب ..ومع أن أبا العلاء كـان مقلـداً لأبـي الطيب مفتوناً به حتي لنستطيع أن نعده تلميذاً مـن تلاميذه ، مـع هذا كلــه فمـا أعظـم الفرق بيـن الرجلين لا فـي حياتهمـا العمليـة وحدهـا بل فـي حياتهمـا العقليـة أيضـا ! كـان أبـو الطيــب عبـداً

---

(1) ديوان المتنبي ص ٢٦٧ .

(2) مالك الأرض نصب علي الحال أي يجهل هذا الرجل أني إذا ملكت الأرض كنت في حال العسر عند نفسي (العكبري ج/٢ص١٣١)

لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة ، وإنما نفهم منها شهوات أخري ممتازة بعض الشيء شهوات الثروة والغني والاستعلاء علي الناس .وأنفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق ، ذاق مرارة البؤس واحتمل ذل السؤال ، وباع شعره في سوق الكساد ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار ، وتملق من كان يزدريهم أقبح الازدراء ودفع إلي المخاطرة والمغامرة انتهي إلي السجن وتعرض للموت ، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء وتبذل رأيا برأي ومذهبا بمذهب وذل للفرس بعد أن كان لهم عدوا وبهم مغريا وعليهم محرضا ، وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتي تلقاه الموت في بعض الصحراء فأراحه وأراح منه !

فأين هذا من أبي العلاء الذي لم يدع لنفسه شهوة إلا أذلها ولا عاطفة إلا أخضعها لسلطان عقله والذي اعتدّ بنفسه فارتفع بها عما تحتاج إليه الحياة من صراع ، وآثرها بالعافية وألزمها القصد والاعتدال ، وضن بها علي الكذب والمين وعلي البيع والشراء ولم يرد أ، يتشبه بالملوك والأمراء في ملكهم وإمارتهم ، ولا أن يطمع فيما يفيد عندهم الشعراء والأدباء والعلماء من رخيص اللذات يشترونه بأغلي الأثمان وإنما أراد ما هو أرفع من ذلك مكاناً وأبعد من ذلك منالاً وأجلّ من ذلك خطرا أراد أن يتوحد لأن الله واحد فقال :

توحدْ فإن الله ربك واحد * ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

وازن بين المطمحين ، وقس إلي ضعة أبي الطيب رفعة أبي العلاء إن كان يمكن أن تقاس الرفعة إلي الضعة ، ومع ذلك فقد لقي كل من الرجلين في سبيل مطمحه آلاما شدادا لا يبلغها الإحصاء إلا أن آلام المتنبي تقص فلا تثير في نفسي إلا غيظا وازدراءً وقد تثير في نفس غيري من الناس إكبارا وإعجاباً وآلام أبي العلاء تقص فتثير في نفسي حباً وإجلالاً كما تثير فيها عطفاً

وحنانا وإشفاقاً ، وما أري أنها تثير في نفوس غيري من الناس ازوراراً عن الرجل أو تنكراً لـه أو استخفافاً بـه ولنا أقرأ شعر الرجلين فأذكر قول أبي العلاء حين شفع إلي صالح في قومه :

فيسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد ، ولكن زئير الأسد كان يدل علي شيء حين كان يصدر عن صالح وأشباهه من المغامرين الذين كانوا يعملـون ولا يقولـون فأما زئير الأسد الذي كان يصدر عن المتنبي فقد كان فارغاً لايحتوي شيئاً ولا يدل علي شيء [1]

لقد عمدت إلي هذه الموزانة ليتبين لنا كيف كانت المشابهة بين الرجلين وإلي أي حد فتن الأخير بالمتقدم الأمر الذي جعل الدكتور طه حسين يوازن بينهما ، ولعلنا نؤكد بهذا مدي حرص أبي العلاء علي تقليد السابقين ، ففي هذه القصيدة تقليد آخر لغير المتنبي كقول أبي العلاء :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم*بإخفاء شمس ضوؤها متكامل

فقد شابه قول الأحوص :[2]

إني إذا خفي اللئامُ وجدتني * كالشمس لا تخفي بكلّ مكان

وقول أبي العلاء :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا* تجاهلت حتي ظن أنّي جاهل

هو من قول أبي فراس :[3]

تغابيتُ عن قومي فظنوا غباوتي* بمفرق أغبانا حصىً وترابُ

الألفاظ والأساليب :

تطالعنا الأبيات بهذا الاستفتاح " ألا في سبيل المجد " وقد كان الأوجه " في البيت الأول " :أن يذكر العزم مع الحزم ليكون أبلغ

---

(1) مع أبي العلاء في سجنه د/ طه حسين ص ٦٩: ٧٢ ط /١٢دار المعارف ١٩٧٩م

(2) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص ٣٤٧ ط /٢ /دار الكتب العلميه بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

(3) ديوان أبي فراس ص ١٤ط / ٢ بيروت ١٤٠٦هـ١٩٨٨٦م

في غرضه الذي قصده ولكنّ ذكره الإقدام أغناه عن ذكر العزم لأن العرب تقول: " قد أحزم لو أعزم "

والاستفهام في البيت الثاني :للإنكار ، والمراد منه التعجب ، وقد قصد أبو العلاء في البيت الثالث :المبالغة في منافرة هذا المهجو ، فجعل الأمر الذي يعد نهاية الصد أقله وأدناه لشدة مخالفته له ومباينته إياه .

وفي البيت الخامس : نجد المبالغة المقبولة ، فليست المعالي والفواضل من الذنوب والمعايب ، وهذا شيء تستعمله العرب إذا قصدوا المبالغة في المدح فيقولون : مافي فلان عيب إلا الكرم ، ومعناه أنه لاعيب فيه البتة ! والاستفهام في البيت السابع :بمعنى النفي وهو تأكيد وتقرير لما سبق . وفي البيت الثامن: نصب الليالي ورضوى على المفعولية إلا أنه أسكن ياء الليالي ضرورة ، ودون هو الفاعل ، غير أنه تُرك علـى بنائه لما كان مضافاً إلى مبني وهو (ما) ، ومثلهِ قوله تعالى " لقد تقطع بينكم " فبينكم هو الفاعل سواء رفعته أو تركته على بنائه لإضافته إلى (كم)

والبيت الحادي عشر: أجراه مجرى المثل وهو يروى برواية أخرى هي : وإني جواد وأيُّ جواد ....وأي مرفوع بالابتداء وخبره محذوف كأنه قال : وأي جوادٍ لم يحل لجامه لنا وأي نضو يمانٍ مغفل أنا ، وأي هذه تستعمل في مدح الشيء وتعظيمه كقولك : أي رجل زيد !

والبيت الثاني عشر : فيه نظر ؛ لأن الملبوس إذا أفاد لابسه شرفاً لم ينتج ألا يكون للسيف إلا غمده شرف ! وكان الواجب أن يقول : وإن كان شرف الفتى في لبسه .

وفي البيت الرابع عشر: يقرن العجب بادعاء الناقص للفضل والأسف بإظهار الفاضل للنقص ، فوضع الألفاظ في المواضع المناسبة اللائقة بها ولو عكس الأمر لأخل بالنظم وأوجد فيه موضع نقد من ذوي الفهم ، والبيت السابع عشر: يذكر الاعتراف بمعنى المعرفة وهو أبلغ في المعنى ، فالزيادة في

المبنى زيادة في المعنى كقولك : كسب واكتسب وقدر واقتدر
قال النعمان بن بشير الأنصاري :
معاويَ إلا تعطنا الحق تعترف ❊ لحي الأزد مسدولاً عليها العمائم

وقال الآخر
إني امرؤ بالزمان معترف ❊ علمني كيف توكل الكتف

وفي البيت الثامن عشر: مشاكلة طريفة حيث قرن المنكب بالعضد والأنامل بالزند ، فضم إلي كل عضو ما يجاوره واستعار للمنكب التأسف وللأنامل البكاء لأن البكاء بالأنامل أليق منه بالمنكب ولأن الأيدي توصف بالندوة والانسكاب وتشبه بالبحر والسحاب والمنكب لا يوصف بشيء من ذلك بل يوصف بحمل الأشياء الثقيلة ، فكان وصفه بالأسف أذهب في الفحوى وأقرب للمعنى ، لأن الأسف ثقل يحمله ، وعبء يثقله المتلهف ، وأما البكاء فإنه يخفف ثقل الأسف ويزيل عبء التلهف ، ألا ترى إلى قول أبي تمام :[1]

نثرتُ فريدَ مدامعٍ لم تُنظَم ❊ والدمعُ يحملُ بعض شجو المغرَم

وقد استعار المعري للزند الموت دون البين لأن الموت أهول الخطوب وأعظم على المكروب من حيث كان من(بان) فيرجى اقترابه ، والميت لا يؤمل إيابه فإذا كان لا يبكي للأعظم والأكبر ، فهو أخلق بألا يبكي للأقل الأصغر .

وفي البيت الرابع والعشرين: يعرض رأيه في سياق الشرط ثم يؤكده بما يشبه الحكمة فهو يري الرفعة في المنزلة الوسطى من العيش لأن القمة يعقبها انحدار كالأهلة إذا ما اكتملت إلا أن الرجل خالف قوله هذا في موضع آخر حيث يقول :
وأصبح واحدُ الرجلين إمّا ❊ مليكاً في المعاش أو أبيلا [2]

---

[1] شرح ديوان أبي تمام . شاهين عطية ص٢٩٤ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .
[2] الأبيل :العصا أو الحزمة من الحطب والحشيش .

وعلي كلٍ فالشاعر لم يكن موفقاً حينما جعل للطموح حداً وسطاً وكان الأولي به والأجدر أن يترك النفس علي سجيتها من التطلع إلي معالي الأمور وعظائمها ، ولله درُّ أحمد شوقي حينما قال :

شباب قنّع لا خير فيه * وبورك في الشباب الطامحينا

بيد أن أبا العلاء قد وفق في اختيار ألفاظه الملائمة للغرض والمعني الذي سيقت له في معظم قصيدته ، والصور البيانية يشهد بعضها بحذقه ومهارته ، ويدل علي تصرفه وافتنانه فهو يصور الزمان ممن يطاول في البيت السادس عشر ، وهو يجعل المنكب ممن يأسف والأنامل ممن يبكي ن وهذا التجسيد العظيم علي سبيل المجاز .

موسيقي الأبيات :

ومما تميزت به الصياغة الفنية عند أبي العلاء إثباته القافية في موضعها ، لا تأسره ولا تخضع لها أفكاره فجاء أثر ذلك في شعره جمال أنغامه وحسن إيقاعه ، وبعده عن القلق وقد زاد من رصانة اللحن في القصيدة موسيقي بحر الطويل ، واختيار الشاعر حرف اللام الممدود قبلها قافية له ، ولعل هذا ما جعل القارئ يحس باستقرار القافية وثقة الشاعر في نفسه عند الإنشاد . وأما الموسيقى الداخلية فهي متمثلة في الإيقاعات الصوتية والإيحاء الذي يمليه كل بيت نظراً لتلاحم لبناته وتوافق كلماته ففيها إذن تلاؤم ظاهر وانسجام نغم ماهر . ،

والجدير بالذكر – علي الرغم من ذلك – أني لا أعتقد دائماً في أن بحور الشعر لا يصلح أحدها في موضع الآخر أو أن هذا البحر يصلح لغرض من الأغراض دون الآخر بل المعول عليه غالباً هو قدرة الشاعر الفنية وشاعريته المتمثلة في إحكام النسج ، ودقة الصياغة وغير ذلك – مما ذكرناه في معني الشاعرية-.

* * * * *

من ألوان النثر الفني في العصر العباسي

أعـــــلام ونماذج فنّيّة :

أولا: المقالة والرسالة:

******

تمهيـــــــــــــد :

المقالـــة : فن أدبي عبارة عن قطعة نثرية محـــدودة الطــول ومحدودة الموضوع تكتب بطريقة خالية من التكلف أو إرهاق القارئ ، وتعبّر عن كاتبها ولها ثلاثة عناصر :

١- مادة المقالة ويستمدها الكاتب من الموضوع ذاته ويشترط لجودتها أن تكون المادة صحيحة وفيها تجديد وتشويق

٢- أسلوب المقالة وهو يختلف من ذاتي إلي موضوعي ومن علمي إلي أدبي .

٣- خطة المقالة وهي تتألف من مقدمة موجزة قصيرة تقدم للعرض ، وعرض مفصل للأفكار والشروح والبراهين بتسلسل منطقي ثم خاتمة وهي تلخيص للنتائج التي توصل إليها الكاتب .

أما الرسالة : فهي خطاب مكتوب في غرض يبعث به صاحبه إلي آخر ، وهي نوعان إخوانية وديوانية (أو رسمية) ولكل منهما خصائص وآداب تختلف باختلاف الموضوع وطرفي التخاطب .

مدارس الكتابة الفنية :

كان الأسلوب السائد في بداية العصر العباسي هو:أسلوب "**الترسل الطبيعي**" وإمامه عبد الله بن المقفع " **والترسل الصناعي**" الذي خلفه عبد الحميد الكاتب ثم مالت الأساليب إلي:" **التنويع والتفريع والتحليل والتعليل**" علي يد أبي حنيفة الدينوري ، وطبقة من الأدباء في القرن الثالث ، أما في القرن الرابع فقد ظهرت **الصنعة البديعية المطبوعة** علي يد ابن العميد ثم ما لبثت أن اثقلت بالمحسنات التي أسرف فيها القاضي الفاضل فظهر "**التكلف البديعي** في القرنين الأخيرين من الدولة ، ومما هو جدير بالذكر أن هذه المدارس ليس بينها حدود فاصلة ،

وليست كذلك محدودة بزمان أو مكان " ففي عصر الجاحظ كان ابن عبد ربه يقلد ابن المقفع ، وفي عصر ابن العميد كان الشريف الرضي يتفصح ببلاغة الإمام علي وما مقامات اليازجي والألوسي وعبد الله فكري في عصرنا الحاضر – إلا صدى لمقامات الحريري والبديع وكذلك جاءت مرآة البشري " بظلالها الكاريكاتورية مرآة لنوادر الجاحظ ودعابته على الرغم من تقادم العهد وتعاقب السنين ومدرسة الترسل بفروعها المختلفة في العصر العباسي قادها أول الأمر عبد الله بن المقفع وقام أسلوبها على الترسل الطبيعي وعماده (الإيجاز والإرسال) ، فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء عفوا ، وهو بذلك لا يخرج عن الأسلوب العام في القرن الأول كل هذه بلفظ سهل ، وأسلوب سلس متين والربط خال من المبالغات ، وكانت عنايته بتجويد المعنى أكثر من احتفاله بجمال الألفاظ ..ومما هو جدير بالذكر أن مصرع عبد الحميد الكاتب بمقدم العباسيين لم يكن مصرعا لطريقته فقد تفصّح بها أعلام القرنين الثاني والثالث ومن بينهم أبو حنيفة الدينوري ، وأبو عثمان الجاحظ وابن قتيبة وقد جنحت طريقتهم إلى الإطناب بعد الإيجاز والازدواج بعد الإرسال فضلا عن إطالة التحميدات بالازدواج [1]

سار هذا الاتجاه جنبا لجنب مع اتجاه ابن المقفع غير أن رواده كانوا كثرة غالبية حتي القرن الثالث وفي هذا القرن وعلي يد أبي حنيفة الدينوري[2] مالت الأساليب الأدبية إلي **التنويع والتفريع**

---

[1] الازدواج هو اتحاد الفاصلتين في الوزن دون التقفية ، كقوله تعالي:" ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة " ويرجع سر جماله -كما يقول ابن الأثير إلي الاعتدال وإذا كانت مقاطع الكلام معتدله وقعت من النفس موقع الاستحسان (المثل السائر ص١٦٩)

[2] هو أحمد بن داود الدينوري المتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فارسي الأصل وكتابه: الأخبار الطوال هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا وقد قسمه ثلاثة أقسام : الأول: تناول فيه الأحداث التاريخية منذ آدم عليه السلام

والتحليل والتعليل وحملت مدرسة الدينوري لواء البيان منذ القرن الثالث الهجري عبر القرون حتي عصرنا الحاضر الذي ملّ السجع وألغاز البديع فساد فيه الأسلوب المرسل ولم ينقطع تيار أبي حنيفة الدينوري نلمحه في التوازن والازدواج عند الرافعي والزيات ، والترديد والتكرار عند طه حسين والتحليل والتعليل عند العقاد والفكاهة والسخرية عند البشري .. الخ والخلاصة أن أساليب النثر الفني في العصر العباسي صارت من الترسل الطبيعي إلي الإطناب والازدواج ثم إلي:

التعليل والتحليل والتفريع والتنويع[١] وهو ما مال إليه الكتاب التابعون .

ابن العميد:

هو الأستاذ الرئيس[٢] الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم نشأ شغوفاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية فبرع في علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ في الأدب والكتابة حتي قيل فيه (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وهو فارسي الأصل وقد ولي أبوه رياسة ديوان الرسائل للملك " نوح بن منصور الساماني ملك بخارى ، فلقب بالشيخ كما لقب بالعميد جريا علي عادة أهل خراسان الذين يطلقون هذا اللقب علي من يلي ذلك الديوان ، ولقد ورث عن أبيه

وتاريخ الأمم والأنبياء من بعدم ، والثاني : تحدث فيه عن حياة الفرس مفصلة والثالث : تناول فيه حروب العرب مع العجم والفتوحات الإسلامية

(١) راجع مدارس الكتابة الفنية بالتفصيل:في الأدب العباسي د السيد تقي الدين ص ٨١-٨٤ ط دار نهضة مصر الفجالة القاهرة

(٢) راجع النثر الفني في القرن الرابع ج/٢ ص١٩٣ ط٢ المكتبة التجارية الكبري بمصر ، وجواهر الأدب. لأحمد الهاشمي ص٤٢٣ومابعدها ط/٢٩ دار الفكر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

للمكانة الاجتماعية ثم رحل عن أبيه إلى آل بويه وتقلد شريف الأعمال في دولتهم إلى أن تولى وزارة ركن الدولة سنة ٣٢٨ فساس دولته ووطد أركانها وتشبه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء وكان يشاركهم في كل ما يعلمون إلا الفقه ، ومازال في وزارته محط الرجال وكعبة الآمال حتى توفي سنة ٣٦٠ هـ والنص الذي اختزناه هو أحد الرسائل التي ضمنها ابن العميد كتابه (ديوانــي) وموضوعها في (اللوم والتهديــد)

لـ (بلكا بن ونداد) وقد خرج علي ركن الدولة بن بويه وتمرَّد وشق عصا الطاعة وكان (ابن العميد) وزيراً له فكتب إليه رسالة تهديد ووعيد، لامه فيها علي خروجه وعلي ما اقترف ، وقد كان لهذه الرسالة من الموقع الجميل والأثر الحسن ما انزل بلكا عن استعصانه وأقنعه بخطئه وبلغ العتب من نفسه ما لم تبلغه السيوف القواطع ، حتى لقد قال " والله لقد أغني كتابه عن الكتائب في عرك أديمي[1] وفي استصلاحي ، وردّي إلى طاعة صاحبي "

يقول :[2]

" كتابي إليكَ وأنا مُترَجّحٌ [3] بين طمَع فيك ويأس منك وإقبالٍ عليك واعراضٍ عنك فإنكَ تُدِلُّ بسابق حرمة [4] وتَمُتُّ [5] بسالفِ خدْمة ، أيسرُهمَا يُوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم

---

(1) العرك : الدلك والفرك ، والأديم : الجلد .

(2) راجع النص كاملا في يتيمة الدهر للثعالبي ج٣/١٦٣وما بعدها تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط القاهرة .

(3) ترجح : تذبذب ومترجح : متذبذب

(4) تدل: من الإدلال وهو الانبساط وفرط الثقة بالعفو ، والحرمة مالا يحل انتهاكه ، والذمة المهابة .

(5) تمت : تتوسل

تُشفعهما بحادث غلول (٦) وخيانه وتتبعهما بآنفٍ (٧) خلافٍ ومَعْصية ، وأدني ذلك يُحْبط أعمالك ويَمْحَق كلَّ ما يرعي لك .

لا جَرَم أني قد وقفتُ بين مَيْل إليك وميلٍ عنك أقدمُ رجْلا لصَدْمك وأؤخرُ أخري عَنْ قصْدِكَ وأبسُط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك وأتوقف عن امتثال (١) بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنيعة(٢) لديك ، وتأميلا (٣) لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب (٤) العقل ثم يثوب ، ويذهبُ الحَزْم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الأمر ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر (٥) الماء ثم يصفو وكل ضيقةٍ إلي رخاء(٦)

وكل غمرة (٧) فالي انجلاء كما أنك أتيتَ من إساءتك بما لم يحتسبه أولياؤك فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا – يرتقبهُ أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتي ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت

---

(٦) الغلول: الخيانة في الغنيمة ، ومنه قوله تعالي : " وما كان لنبي أن يغل "
(٧) الروضة الأنف : التي لم ترع والكأس الأنف التي لم يشرب منها والأمر الأنف : المستأنف الذي يسبق به قدر .
(١) لا جرم : حقاً أولا محالة ، وهذا هوالأصل في معني الكلمه ثم تحولت إلي معني القسم .
(٢) الصدم : ضرب صلب بمثله والمقصود هنا الشدة في المعاملة .
(٣) اصطلمه : استأصله واجتاحه
(٤) امتثل الأمر : اطاعه ونفذه .
(٥) الصنيعة : المعروف والإحسان
(٦) تأميلا لفيئتك :أملا في رجوعك إلي الطاعة وانصرافك عما جنحت اليه من عقوق وعصيان .
(٧) الغمرة /: التغطية بالماء ، والمراد هنا المرة من حدوث الشدائد والمحن والمصائب .

وسوء ما آثرت ، وسأقيم علي رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح وعلي الاستيناء [8] والمطاولة ما أمكن طمعاً في إنابتك ..."

تحليل وتعليق :

بدأ ابن العميد رسالته باللوم والتهديد موضحا موقف ركن الدولة بن بويه من بلكا بن ونداد ، فركن الدولة حائر يود تارة رعاية الثائر والمحافظة عليه والعناية به بفضل حرماته عنده وخدماته الجليلة لديه ثم ييأس تارة أخري فيري أن ينقض عليه ويتحلل من صلاته السابقة بعد أن حدث ما حدث من خيانة ومعصية وخروج وتمرد ، وموقف كهذا يحمل نفسه علي الانتقام منه وأخذه بالشدة وعقوبته الصارمة جزاء ما أحدث من أمور ، ثم سرعان ما يتراجع عن التفكير في النيل منه أملا في رجوعه ورجاء في صوابه ، ولا غرابة فالعقل قد يغيب ثم يرجع والماء قد يكدر ثم يصفو والضيق يعقبه رخاء وكل شدة إلي انجلاء وكان لهذا التردد دوافع فصلها ابن العميد فذكر أنه حائر بين العفو عنه والنيل منه وكلما فكر في الانتقام منه فكر أيضا في الإحسان إليه ، وتطول الحيرة بين شناعة الجرم الذي ارتكبه" بلكا " والذي يستحق عليه أكبر العقاب ، ولكن الأمير يتصنع الأناة اعذارا لنفسه والتماساً لرشد صاحبه

وأفكار الرسالة مرتبة عُني صاحبها بتسلسلها الفكري واتساقها في وحدة موضوعية حيث خاطب فيها العقل والجدان معا واستوفى معانيه من طرق متعددة : فابن العميد أول كاتب قد فتح باب الولوع بالرسائل البديعية متوخياً فيها السجع القصير الفقرات ومقتبسا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية مشيرا إلي بعض الحوادث التاريخية مؤثرا بعض المحسنات البديعية كالجناس والمطابقة والأمثال الثائرة ، ورسالته التي نحن بصددها من أجود

---

[8] الاستيناء : التمهل والانتظار .

ما كتبه ، حيث اتسمت برقة الأسلوب وانتقاء العبارة وتسلسل الفكرة وسلامتها من الغرابة أو التعقيد .

وقد دخل ابن العميد في موضوع رسالته دون تمهيد أو تقديم وذلك لأن الموقف لا يحتمل المقدمات بقدر ما يحتاج إلي اللوم ، وقد ضم إلي وعيده وتهديده عبارات **النصح والإرشاد** ، وأفكاره جاءت موافقة لحالته النفسية التي تقتضي أن يفرغ ما بداخله من شحنات الغضب ، والثورة فإذا ما هدأت ثورته وضعفت جذوته استخدم الحكمة التي تشف عن تجاربه في الحياة.

وهو يستخدم **الترادف اللفظي** حتي تستقر المعاني في النفس ، وقد سلك في هذا طريق المناطقة حين يعلل ويرتب المسببات علي أسبابها كقوله : " فإنك تدل بسابق حرمة، وتمن بسالف خدمة " كما عني ابن العميد بالصنعة اللفظية التي تتجلى واضحة بين الكلمات (طمع ويأس ، وإقبال وإعراض ويعزب ويثوب) بل وفيها فوق ذلك من الأساليب ما يصلح أن يكون أمثالا سائرة كقوله : (وكل ضيقة فإلي رخاء وكل غمرة فإلي انجلاء)فهو طباق يوضح المعاني ويقويه فضلا عن أنه محسن بلاغي أجاد ابن العميد استخدامه . وابن العميد حريص علي دقة الألفاظ حريص علي بسط المعاني مهتم بتوضيحه ، فهو في وعيده ولومه يستخدم ما يناسب من ألفاظ توحي بالخوف والرهبة وتلائم الجو النفسي كقوله:(الخيانة الغلول ، المعصية ، يحيط ، يسحق ، الاجتياح) وهي كلمات كفيلة بجلب القلق والتنغيص .

بينما يستخدم في مقام الإرشاد والنصح من الألفاظ ما يوحي بالرفق واللين كقوله :(إحسانك ، إنابتك ، يرشدك)

وقد استخدم ابن العميد **السجع المقبول المستساغ** كقوله : إقبال عليك إعراض عنك ، بين طمع فيك ويأس عليك أيسرهما يوجب رعاية ، ويقضي محافظة وعناية ، وهو يستعين كذلك بالجناس

ولاسيما الناقص منه كقوله : الحزم والعزم ، يصحو ويصفو إعذار وإنذار ، وهو بذلك يكسب عباراته رونقاً وبهاءً

وهو يستعين بالحكمة ، ويبرزها في دقة كقوله فقد يعزب العقل ثم يؤوب ويغرب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم يصلح .

وفي الرسالة حرص شديد علي الإطناب لتأكيد المعني وتقريره وإيثار الترادف في الألفاظ والتراكيب لتحقيق الإيقاع الموسيقي وهي موسيقى داخلية بارعة ناشئة من الطباق والجناس والسجع والازدواج والتوافق الصوتي بين الألفاظ وهو في كل ذلك لا يتكلف بل القت إليه هذه الأصباغ البديعية والألوان الموسيقية بمقاليدها فنراه يطوعها لمعناه دون أن تطوع هي معناه لها

وقد ظهرت في الرسالة شخصية ابن العميد ، كما ظهرت ثقافته التي تجمع بين العربية والفارسية ، وبتلمذته علي علماء عصره ولابن العميد طريقة خاصة عرفت باسمه في العراق وخراسان وما جاورها كما قلده في طريقته بعض الكتاب كالصاحب بن عباد والخوارزمي وغيرهما

أبو عثمان الجاحظ

هو أبو عثمان عمر بن بحر الملقب بالجاحظ – قيل لجحوظ عينيه المتوفي سنة ٢٥٥هـ وقد عرف بباعه الطويل في الكتابة لهذا العصر وكان له طريقة خاصة اتبعها كثيرون وأطلقوا عليها المدرسة الجاحظية فهو – بحق – يعد ثمرة الجهود العقلية الخصبة التي نهض بها المعتزلة من حيث المنطق وقوة الاستدلال والقدرة علي توليد المعاني ، وكان يتخلل كتاباته كثير من الفكاهات والنوادر ليدفع بها الملل عن القارئ .

وقد خلف وراءه تراثاً ضخماً تزهو به المكتبة العربية والمتمثل في العديد من الكتب والرسائل والمقالات وأهمها :

١- البيان والتبيين : في البيان والبلاغة والخطابة والشعر والأسجاع ونماذج من الوصايا والرسائل وضروب من النوادر والمختارات البلاغية ، ويقع في أربعة أجزاء

٢-كتاب الحيوان : ويعد موسوعة للثقافة العربية في العصر العباسي إذ ليس مقصورا علي الحيوان فحسب بل يحوي طائفة من المسائل الفلسفية ، والمعارف الطبيعية ، وتأثير البيئة في الإنسان والحيوان والنبات ، كما يعرض للتاريخ والطب والأمراض ، وللعرب وأحوالهم وعاداتهم وعلومهم ومزاعمهم ، وفيه صفوة مختارة من الشعر العربي والنودر والفكاهات ..

٣-كتاب البُرصان والعُرجان والعُميان والحولان ، وفيه يعرض لهذه العيوب الخلقية وماورد فيها من آثار شعرية كما عرض لأعلام العرب ممن فيهم هذه العيوب وأعلام الملوك والرؤساء والأدباء والشعراء ممن كانوا علي هذه الحال كذلك !!

وهذا أنموذج من كتابه : "البيان والتبيين " يتحدث فيه عن البيان فيقول :[١]

قال بعض جهابذة [٢] الألفاظ ، ونقاد المعاني :

" المعاني القائمة في صدور الناس ، المتصوَّرة في أذهانهم ، والمتخلجة[٣] في نفوسهم والمُتَّصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فِكَرهم مستورة خفيَّة ، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة[٤] وموجودةٌ في معنىً معدومةٍ، لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحبه ، ولا حاجةَ أخيه وخليطِه[٥] ولا معنَي شريكِهِ والمعاون له على أموره ، وعلي مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره وإنما

---

[١]البيان والتبيين ج/١ تحقيق عبد السلام هارون ط/دار الجيل بيروت ص/٧٥

[٢] الجهابذة : جمع جهبذ وهو الخبير بعلمه أو فنه

[٣] القائمة: الموجودة في صدورهم والمتخلجة : التي تدور وتحدث نفوسهم .

[٤] وحشية : غريبة ، أي أنها بعيدة غير مألوفة .

[٥] الخليط : المخالط كالجليس المجالس في اللفظ والمعنى وهو واحد وجمع وقد يجمع علي خلطاء .

يُحيي تلك المعانيَ ذكرُهم لها وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيّاها وهذه الخصالُ هي التى تقرّبها من الفهم ، وتُجليها للعقل ، وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً ، والغائبَ شاهداً ، والبعيدَ قريبا وهي التي تخلّص الملتبس ، وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيدا والمقيد مطلقا والمجهول معروفا ، والوحش مألوفا والغُفل [٦] موسوما والموسوم ، معلوما ، وعلي قدر وضوح الدلالة وصواب الإشار، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكونُ إظهار المعني وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع [١] والدلالة الظاهرة علي المعني الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ، ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم! والبيان :اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعني ، وهتك الحجاب [٢] دون الضمير حتى يفضي السامع إلي حقيقته ويهجم علي محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعني ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع *

<u>وللصاحب بن عباد</u> [٣] :

---

(٦) الغفل : ماليست له علامة تميّزه ، والموسوم: الذي له سمة أي أثر وعلامة ، والمعني : أن تصبح المعاني الغامضة واضحة .

(١) أنجع أكثر فائدة ، وأعظم أثرا .

(٢) القناع: الغطاء ، وهتك الحجاب دون الضمير: أزال الحجاب عن الضمير والمعني : بيّنه لك وكشفه

(٣) هو الوزير اسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافي الكفاة ، ولد سنة ٣٢٦هـ بطالقان وهي ولاية من قزوين وأبهر وتوفي سنة ٣٨٥ هـ فارسي الأصل ، كان أديبا منشئا وعالما في اللغة وغيرها ، أخذ عن ابن فارس وابن العميد وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابن العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما ولي الوزارة ، وبقي علماً عليه وسمي

من رسائل العهود قوله :[1]

" هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي علي مولي أمير المؤمنين ، إلي عبد الجبار بن أحمد حين ولاه قضاء القضاة بالري وقزوين ، وسهرورد وقم وساوة ، وما يجري معها ويتصل بها ، علما بما لديه من علم يهتدي بأضوائه ، وورع يستسقي بأنوائه[2] ، وكفاية يكتنفها[3] الحلم والحجى[4] ، وأمانة يبعثها النسك والتقي[5] ، وموقع في علية أهل الدين ترمقه[6]

ـيه كل وزير بعده وزر لمؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، ولم تكن مكانته لأدبه فحسب بل لأنه كذلك كان كاتبا ووزيرا وقائدا ومدبرا لشئون الدولة ، وكان مجلسه قبلة الأدباء والشعراء يمدحونه أو يتناقشون أو يتعارضون . وكان شاعرا مترسلا مع فنون شديد بالسجع والبديع وتعتبر رسائله وثائق تاريخية مهمة في (للدولة البويهية ، في العراق وخراسان وفارس وكان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والصاحب بن عباد هذا ، ومن أشهر ملوكها عضد الدولة ابن بويه الذي ألف له أبو إسحاق الصابي كتاب " التاجي" في أخبار بني بويه وألف له أبو علي الفارسي كتاب " الإيضاح" في النحو) وقيمة الوثائق الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية لأنها تناولت موضوعات يشق تطويعها للأساليب الأدبية مثل سقي الأرض(راجع النثر الفني في القرن الرابع ج/٢ص ٢٤٣ د. زكي مبارك .

(١) راجع: من عيون الأدب د/ محمد كامل الفقي ص ١٤٨ - ١٥٠وجواهر الأدب للهاشمي ص ٤٢٤)

(٢) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع الشمس ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوما ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوما وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والبرد إلي الساقط منها .

(٣) يكتنفها : يحوطها ، ويصونها ، والفعل من باب نصر .

(٤) الحجى : العقل .

(٥) النسك مثلثة : العبادة ، وكل حق لله تعالي ، ونسك ككرم ونصر وتنسك

(٦) ترمقه: تنظر إليه ، وبابه : نصر.

النواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر والله ولي الإرشاد ، والمعونة علي حسن الارتياد[٧]

لمَرْء بتقوى الله ومراقبته وتخوف سطوه ومعاقبته ، إن التقوى زمام الأفعال الصالحة ، وإمام الأعمال الرابحة من لجأ إليها أتاه التوفيق في مصارفه وواتاه السداد في مواقفه ، ومن مال عنها تحاماه [١] الرشاد في أنحائه ، وتخطاه الصواب في آرائه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

وأمَرْه بأن يجعل القرآن قبلة مساعيه ، ووجهة مطالبه ومباغيه فينصبُّ إليه تاليا ، وينتصب له قارئا ، ويخلو به متدبرا ، ويوظب عليه متبصرا ، فهو حادي الحكم[٢] ، وهادي الأمم والجلاء[٣] عند الاشتباه والاستعجام [٤] والضياء في مشكلات الإعضال والاستبهام . مَن فزع إلي زخائره أثرى من المراشد واستثرى[٥] ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر[٦] فلو أنزل علي الجبال لخشعت أو علي الأطواد لتصدعت ما فرط فيه ، ولا تجوز في أوامره ونواهيه "

* * * * * *

[٧] الارتياد : الطلب والذهاب والمجيء ، ومثله الرود والرياد .

[١] واتاه وآتاه إيتاء أعطاه . وتحاماه : توقاه واجتنبه

[٢] يسوق إليها

[٣] الجلاء بالفتح والمد : الأمر الجلي ، تقول : جلا لي الخبر يجلو جلاء أي وضح ، والجلاء بالكسر مصدر جلى السيف يجلوه أي صقله .

[٤] الاستعجام : الاستبهام والخفاء

[٥] أثرى : كثرت أمواله ، واستظهر به : استعان

[٦] وأعسر افتقر . البصيرة: الحجة ، وأقوت الدار: خلت

ثانيـــا : فنُّ المقـامات :

المقامة :

المقامة نوع أدبي اشتمل علي أول بذور النـثر القصصـي إلا أنـه لم تتوافر له الشروط الفنية الكاملة ، وهي في الأصل: اسم مكـان من قام ثم أطلقت وأريد بهـا الكـلام الـذي يُمـلأ بـه مجلس مـن المجالس علي لسان بطل بما يشبه القصـة .

أسلوبهـا: هي عبـارات عربيـة فصيحـة مملـوءة بالتعمُّـل أو التكلف وألفاظهـا غريبـة تقوم علـي الصنعـة البديعيـة مـن سـجع وجناس وطباق وغير ذلك .وكثيراً ما تمتزج بالفكاهـة والسـخرية الهادفة وربما خالطها الأسلوب الوعظي .

ومنشؤها : أن الفقر والبؤس كانا شائعين بين الناس وكـان كثير من الأدباء يعيشون في شظف من العيش لا يجدون مـن يعطـف عليهم أو يعينهم علي أعباء الحيـاة فكتبت المقامـات بدافـع مـن البؤس والفاقة حينئذ لتصوير حياة هؤلاء البائسـين مـن الأدبـاء – بطريق غير مباشر

وهدفـــها: ١– النقـــد الـــلاذع لأوضـــاع المجتمـــع السياســـية والاجتماعية بطريق غير مباشر .

٢– ربما اشتملت علي الموعظة ، وكانت هدفاً لها .

٣–وربما اشتملت علي الفكاهة والسخرية وكانتا هدفاً لها .

٤–كانت مجالا لتعليم غريب ألفاظ اللغة العربية ومجـالاً للتنـافس في تنميق أو تحبير ألفاظ اللغة علي نمط خاص يميزها عن بقيـة أنواع النثر العربي ، وهي تتضمن ألوانا من الثقافة والاقتباس من

بعض الأنواع الأخري كاقتباس بعض مقاطع الشعر وبعض الطرائف اللغوية والاجتماعية .

أهمُ رجالاتها : وكان من أشهر هؤلاء الكتاب أبو بكر بن دريد ت سنة ٣٢١هـ وهو أول من عرفت له مقامات ، وأحمد بن فارس صاحب كتاب المجمل ت سنة ٣٩٠هـ وبديع الزمان الهمذاني ت سنة ٣٩٨هـ وجار الله الزمخشري ت سنة ٥٣٧هـ

وقد اخترنا أنموذجاً لهذا الفن وهو لـ (لبديع الزمان الهمذاني)

تعريف بالكاتب :

نشأ بهمذان من بلاد فارس أشرف أبوه علي تعليمه في سن مبكرة ، وكان من شيوخه الذين نهل من موردهم العذب : أحمد بن فارس صاحب كتاب المجمل وعيسي بن هشام الذي جعله راوياً لمقاماته ، ولعظم فضل بديع الزمان ؛ كثر حاسدوه حتي قيل إنه مات مسموماً وكانت وفاته في الحادي عشر من جمادي الأولي سنة ٣٩٨هـ ، وتبلغ مقاماته أربعمائة ، وإن لم يعثر إلا علي خمسين منها فقط وهي عبارة عن حكايات أو قصص انتزعها بديع الزمان من الحوادث التي جرت له وشاهدها في رحلاته الطويلة في بلاد خراسان [1] ومن مقاماته :

المقامة البغدادية :

حدثنا عيسي بن هشام قال :[2]

اشتهيتُ الأزداذ[3] وأنا ببغداد وليس معي عقد علي نقد[4]

---

[1] راجع النثر الفني في القرن الرابع د/ زكي مبارك ج/١ ص ١٦١ وما بعدها ط بيروت سنة ١٩٧٥م .

[2] مقامات بديع الزمان الهمذاني ط/٤ ص/٥٩ شرح وتقديم الشيخ محمد عبده المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان .

[3] الأزداذ : نوع من التمر .

[4] كناية عن العدم أي معدم لا مال عندي .

فخرجت أنتهزُ محالَّة حتي أحلّني [1] الكرْخ ، فإذا أنا بسـوادي يسوق بالجهد حماره[2] يُطرقُ بالعُقد إزاره فقلت : ظفرنـا والله بصيد ، وحيّاك الله أبا زيد من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ وهلمّ إلي البيت ![3] فقـال السوادي : لستُ بـأبي زيد ، ولكني أبـو عبيد ، نعم لعن الله الشـيطان ، وأبعـد النسـيان ، أنسانيك طولُ العهد ، واتصال البعد [4] فكيف حال أبيك ؟ أشابٌ كعهدي ، أم شابَ بعدي ؟ فقال : قد نبت الربيـع على دمنتـه [5] وأرجـو أن يصيره الله إلي جنتـه ، فقلت : إنـا للـه وإنـا إليـه راجعون ، ولا حول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم ومددت يد البـدار إلي الصِّـدار ، أريد تمزيقـه [6] فقبـض السـوادي علـى صدري بجُمْعه[7] وقال: نشدتك الله لا مزّقته ، فقلت هلمّ إلي البيت نصب غداءً أو إلي السوق نشتر شواءً ، والسوق أقرب ،

---

(1) المَحال : جمع محلة والمراد الأمـاكن التي يوجد بها الأزاذ ، وانتهز : المراد منه التمس واقتنص ، ولكنه جعلها كالغنيمة التي يسارع لانتهازها اللبق والكرخ : محل ببغداد ، والضمير في " أحلني" راجع إلي الأزاذ ، من باب اسناد الفعل إلي السبب .

(2) السواد : ريف العراق وقراه ، والنسبة إليه سـودي ، والمراد رجل من أهل السواد وهم – في أغلب الأحوال– أغرار لايفطنون لدقيق الحيل .

(3) أراد بالصيد ذلك الرجل ثم أقبل عليه يحادثه ويكالمـه يتدخل معه لينـال منه ما أراد .

(4) أراد بالصيد ذلك الرجل ثم أقبل عليه يحادثـه ويكالمـه يتدخل معه لينـال منه ما أراد .

(5) المراد بالدمنة : القبر والربيع هنا : النبات ، وكنى بذلك عن موتـه منذ عهد طويل .

(6) يد البدار : المبادرة والسرعة ، والصدار: ثوب يلبس ممـا يلي الجسد ، والمعنى: أنه حين سمع بموت أبيه بادر إلي ثوبه ليمزقه ، إظهاراً للجزع ، وتأكيداً للحيلة بأنه صديق أبيه .

(7) جُمع اليد بضم الجيم : قبضتها ، والمعنى :أنه أنـه قبض بكل يده عليه ليمنعه من تمزيق صداره .

وطعامه أطيب ، فاستفزّته حُمة القرْم ، و عطفته عاطفة اللّقم[1] وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ! ثم أتينا شوّاءً يتقاطرُ شواؤه عرقا وتتسايلُ جوذاباتهُ مرقا [2] فقلت : أفرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها الرّقاق ، ورشّ عليه شيئاً من ماء السُمّاق[3] ليأكله أبو زيد هنيا ، فانحنى الشّوّاء بساطوره[4] على زُبدة تنّوره فجعلها كالكحل سحقا ، وكالطحن دقا ثم جلس وجلستُ ، ولا ينس ولا ينست ، حتى استوفينا ، وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوق ، وأمضى في العروق ، وليكن ليليّ العُمْر يوميّ النشر[5] رقيق القشر كثيف الحشو ، لؤلؤي الدُّهن كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أب زيد هنياً، قال: فوزنه ثم قعد وقعدت ، وجرّد وجرّدت[6] حتى استوفيناه ثم قلت :

يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماء يُشَعشَع[7]

---

[1] استفزّته :استهوته فحركته بشدة ، والحمة في الأصل : إبرة العقرب التي تلسع بها ، ثم حملت على الشدة مطلقا والقرم : الشهوة البالغة لأكل اللحم واللقم : السرعة في الأكل ، والمعنى : أن شدة حبه للطعام وعظيم شوقه أسرع به إلى موافقتي .

[2] الجوذابة : رغيف يخبز وفوقه طائر أو قطعة لحم .

[3] السُّماق : حب صغير حامض يعد من المشهيات .

[4] الساطور : سكين عظيمة ، وبهذا الاسم تعرف عند العامة .

[5] اللوزينج : نوع من الحلوى يتخذ من الخبز ويسقى بدهن اللوز ، ويحشى بالبقل ، ومعنى كونه ليلي العمر أنه صنع ليلا ، ومعنى كونه نهاري النشر: أنه قد ظهر نهارا ليكون بعد مضي هذا الوقت قد شرب دهنه وعسله

[6] جرد : أي شمر عن ساعده ليسرع في الأكل

[7] يشعشع : يخلط ، ومن ثم قيل للخمر : مشعشعة ؛ لأنها مخلوطة بالماء ، قال عمرو بن كلثوم :

مُشَعشعة كأنّ الحُصّ فيها ٭...إذا ما الماء خالطها سخينا

والحُص : الورس وجمعه أحصاص وحصوص يقال :هو الزعفران ويقمع : يقهر ، والضارة شدة الحر .

ويفثأ هذه اللقم الحارة[1] اجلس يا أبا زيد حتي نأتيك بسقّاء يأتيك بشربة ماء، ثم خرجتُ وجلست بحيث بحيث أراه ولا يراني أنظر ما يصنع ، فلما أبطأت عليه قام السواديُّ إلي حماره ، فاعتلق الشّواء بإزاره [2] وقال: أين ثمنُ ما أكلت ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفا [3] فلكمه لكمة ، وثنى عليه بلطمة ثم قال الشوّاء :هاك ، ومتي دعوناك ؟[4] زن يا أخا القِحَة[5] عشرين درهما ، فجعل السواديّ يبكي ، ويحل عُقَدَه بأسنانه ، ويقول: كم قلت لذاك القُريد :[6] أنا أبوعبيد وهو يقول : أنت أبو زيد ، فأنشدتُ :

اعملْ لرزقك كلّ حيلة ● لا تقعدنْ بذلّ حالة[7]
وانهض بكل عزيمة ● فالمرءُ يعجزُ لا محالة[8]

● ● ● ● ● ●

---

[1] يفثأ : يكسر ويخفف، والمعني : أننا في حاجة إلي الماء المخلوط بالثلج
[2] اعتلق : تعلق به أي أن الشواء لم يتركه يخرج ، بل أمسك به ليأخذ حقها
عتلق : تعلق به أي أن الشواء لم يتركه يخرج ، بل أمسك به ليأخذ حقه
[3] أكلته ضيفا : أي كنت مدعوا لتناول هذا الطعام ، فلا تطالبني بثمنه ، لأن الضيف لا يدفع ثمن ما يأكل .
[4] هاك اسم فعل أمر بمعني: خذ أي: خذ من الضرب ما أنت خليق به
[5] القحة : الوقاحة وسوء الأدب ، وزن عشرين : أعط وزن عشرين درهما
[6] القُريد: المراد كم قلت لهذا الخائن المحتال لكنه يصر علي أني أبو زيد! (ولعلنا نعجب من اختيار الكاتب لهذا الاسم إذا علمنا أن الحمار يكني عنه بأبي زياد ! راجع الإبانة في اللغة العربية الشريفة للعوتبي تحقيق الدكتور/ محمد حامد شريف ود /محمد مكي ج /١ ص ٤٢٩ط/١ سلطنة عمان.)
[7] المعني : لا تكن خائر القوى فتقعد عن طلب الرزق ، وأنت تعلم أنه لا يأتيك حتى تعمل ولا يقبل عليك إلا إذا سعيت له فلا تدخر وسعا في تحصيله.
[8] أي أنه لا بدّ أن يأتي علي المرء يوم يعجز فيه علي القيام بحاجته ، فانتهز فرصة شبابك وقوتك واغتنم من فتوتك وحداثة سنك ما يساعدك علي القيام بعظائم الأمور وجلائلها .

المقامة المَضيرية :

هي مقالة فكاهية من أندر الفكاهات التي كتبها بديع الزمان ، وهو يتحدث علي لسان عيسي بن هشام ونسبها لرجل يقال له أبو الفتح الأسكندري، قال:[١] دعاني بعض التجار إلي مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم إلي أن أجبته إليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثني علي زوجته ويفديها بمهجته، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ويقول: يا مولاي لو رأيتها والخرقة في استها وهي تدور في الدور من التنور إلي القدور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الإزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل ، وأثّر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليله وأن يسعد بظعينته ، ولاسيما إذا كانت من طينته. وهي ابنة عمّي لحيٌ ن طينتها من طينتي ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي وأرومتها أرومتي ، لكنها أوسع مني خلقا ، وأحسن خلقا ...صدّعني بصفات زوجته ، حتي انتهينا إلي محلته ثم قال: يامولاي، تري هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار علي حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة [٢] من قلادتها ..كم تقدر يامولاي أنفق علي كل دار منها ؟؟

قله تخمينا ، إن لم تعرفه يقينا !

أبو الفتح : الكثيـــــر ....!

التاجر: ياسبحان الله ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

---

[١] راجع المقامة كاملة في/مقامات بديع الزمان الهمذاني ط/٤ ص/١٠٤ شرح وتقديم الشيخ محمد عبده ط/ بيروت لبنان .

[٢] السطة : الواسطة وهي كلمة يكثر ورودها في كلام بديع الزمان .

وظل الرجل يتحدث عن داره ، وما أنفق عليها إلي أن ضجر أبو الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة ،ثم استأنف التاجر الحديث عن الطعام فقال :

ونعود إلي حديث المضيرة وقت الظهيرة :ياغلام :الطست والماء

أبو الفتح :– في سرّه – الله أكبر ! ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج (ويتقدم الغلام بالماء)

التاجر :تري هذا الغلام ؟ إنه رومي الأصل ، عراقي النشء تقدم ياغلام واحسر عن رأسك وشمر عن ساقك وافض عن زراعك

وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر .* ويفعل الغلام ذلك * !!!

التاجر :بالله من أشتراه ؟

أبو الفتح ...... ؟

التاجر :أشتراه والله أبو العباسي ، من النخاس ، ضع الطست وهات الإبريق (يضع الغلام الإبريق) فيأخذه التاجر فيقلبه ، ويديرُ فيه النظر ، ثم ينقره ويقول :

التاجر : انظر إلي هذا الشبه كأنه جذورة اللهب ، أو قطع الذهب شبه [1] الشام وصنع العراق ، ليس من خلقان الأغلاق ، وقد عرف دور الملوك تأمل حسنه وسلني متي أشتريته ؟

أبو الفتح : ... ؟

التاجر: اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة ، ياغلام الإبريق (يقدم الغلام الإبريق)

فيأخذه التاجر ويقلبه ثم يقول:

التاجر : لايصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولايصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يصلح هذا الدست إلا في هذا البيت ,ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف ، أرسل الماء ياغلام ، فقد حان وقت الطعام (ويصب الغلام الماء) فيتأمله التاجر ويقول :

---

[1] الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .

التاجر : ترى هذا الماء ما أصفاه ! هو أزرق كعين السنّور ، وصافٍ كقضيب البلور ، استقي من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، إنما الشأن في الإناء ، لا يدلك علي نظافة أسنانه أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل ؟ سلني عن قصته ، فهو نسيج جرجان ، وعمل أرجان وقع إليّ فاشتريته ، فاتخذت بعضه امرأتي سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعا وانتزعتْ بيدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته إلي المطرز ، حتي صنعه كما تراه ، وطرّزه ، ثم رددْتُه من السوق وخزّنته في الصندوق ، وادخرته للظروف من الأضياف .....!.
ياغلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ! والقصاع فقد طال المجاع والطعام فقد كثر الكلام (ويأتي الغلام بالخوان) فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويعجمه بأسنانه ثم يقول :

التاجر : عمّر الله بغداد ، فما أجود متاعها ! ، وأظرف صنّاعها تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلي عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح : – وقد ضاق صدره – هذا الشكل ، فمتي الأكل ؟؟

التاجر : عجّل ياغلام – ثم يعود للحديث عن الخوان – فيقول :

التاجر : لكن الخوانُ قوائمه منه !

أبو الفتح: – وقد جاشت نفسه –
بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة أين اشتُريت أصلا، وكيف اكتري لها حملا ، وفي أي رحىً طحن وإجادة عجن ، وفي أي تنّور[1] سُجر وخباز استؤجر؟
وبقي الحطب ، من أين احتطب ، ومتي جُلب وكيف صُفّف ، حتي جفف وحُبس حتي يبس ؟

---

(1) التنّور : الذي يخبز فيه وهو نوع من الكوانين ، وسُجِر : أي حُميت نارهُ

وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه والملح وملاحته ، وبقيت السُكُرُّجات [1] من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومَن استعملها ومَن عملها.. ؟
والخلُّ كيف انتقي عنبه أو اشتري رطبه وكيف صُهرجت [2] معصرته ، واستخلص لبُّه ،.وكيف قُيِّر حُبه..؟[3]
وكم يساوي دَنُّه ؟[4] وبقي البقل كيف احتيل له حتي قطف ، وفي أي مبقلة رصف وكيف تؤنق حتي نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشتُري لحمُها ونصبتْ قِدرها وأججتْ نارها ودقت أبزارها حتي أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم [5] وأمر لايتم

أبو الفتح : وقد هم بالقيام

التاجر : أين تريد ؟؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !.

التاجر: يامولاي ! تريد كنيفا يزري[6] بربيعي الأمير ، وخريفي الوزير قد جُصص أعلاه وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرر أرضه يزل عن حائطه الذر فلا يقلق ، ويمشي علي

---

(1) السكرجات: جمع سُكرُّجه : -بضم السين والكاف والراء والتشديد- هي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم وهي فارسية .

(2) الصهاريج : هي كالحياض يجتمع فيها الماء وصهرج الحوض أي طلاه

(3) القير والقار صَنْعُ يذاب فيستخرج منه القار وهو شيء أسود تطلي به الإبل والسفن ليمنع الماء أن يدخل. والحبُّ : الجرة الضخمة وأصله الحُنب وهي معربة وليست عربية قال ابن دريد: هو الذي يجعل فيه الماء (راجع لسان العرب لابن منظور / قير ، حبب)

(4) ما عظم من الرواقيد و الدَّن هو كهيئة الحُب إلا أن أطول مستوى الصنعة، وفي أسفله كهيئة قونس البيضة والجمع الدَّنان ، وقيل الدَّن: أصغر من الحُبِّ له عُسعس فلا يقعد إلا أن يحفر له ، قال ابن دريد :الدن عربي فصيح ! وأنشد :

وقابلها الريحُ في دنّها ● وصلى علي دنّها وارتسم

وجمعه دِنان : قال ابن برِّي : يقال للدن الإقنيز ، عربية .(اللسان/ دنن)

(5) يطِم : يعلو ويعظم .

(6) الكنيف : الخلاء ، والمادة كلها تدور حول الستر ،.ويزري:المرادينِاسب

أرضه الذباب فيزلق عليه باب غير أنه مـن خليطـي سـاج وعـاج مزدوجين لحسن ازدواج يتمني الضيف أن يأكل منـه !!

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب

[ويمضي أبو الفتح فيقول:]

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهـاب وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح ، يا أبا الفتح ، المضيرة يا أبا الفتح ، وظن الصبيان المضيرة لقباً ، فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر ، فلقي رجل الحجرَ بعُمامته ، فغاص في هامته ، فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلي الحبس ، فأقمت عامين لاي ذلك النحس فنذرتُ ألا أكل مضيرة ماعشتُ ! فهل أنا في هذا ، يا آل همذان ظالم ؟ ؟ قال عيسي بن هشام :

فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة [1] علي

خصائص النص :

١-الفكاهة النثرية قديمة بيد أنها ظهرت في القرن الرابع ظهوراً واضحاً ملموساً وصارت فناً واضح الرسوم يقصد الكتاب إليه قصداً ، ويتنافسون في تحبيره .

٢- والمقامة تتسم بانتقاء العبارات ، وتسلسل الأفكار فضلا عن خفة روح كاتبها ، وأسلوب النص مملوء بالصناعة اللفظية مع اختيار الغريب من الألفاظ والتزام السجعة المتكلفة غالباً وإن أدي ذلك إلي سخف العبارة إذ أن كاتبها قد حرص علي تزيين عباراته بما استطاع إلي ذلك سبيلا .

وموضع المقامة وإن كان يعالج – بطريق غير مباشر – بؤس الكتاب حينئذ إلا أنه يمكن الحكم عليه بأنه ضئيل المغزي ، والجدير بالذكر : أن خصائص هذه المقامة والتي قبلها تكاد تتفق مع خصائص المقامة في هذا العصر الذي نحن بصدده .

---

(1) المضيرة : بفتح الميم وكسر الضاد ، مريقة تطبخ بلبن وأشياء ، وقيل هي طبيخ يتخذ من اللبن الحامض ، وقيل المضيرة :أن تطبخ اللحم باللبن .

ثالثاً : الخطابة

تمهيـــد:

يمكن تعريف الخطابة بأنها : فنُّ مخاطبـةِ الجمـاهير للإقنـاع بهـا أو التأثير وهي فن قديم أستخدم في الإرشاد وفض الخصومات كما استخدم في الحث علي الحـروب أو السـلام والخطابـة إنمـا ترقـى كلما استجدت دواعيها واستقرت الحياه الفكريه وفي ظلال الحرية التي تعيشها البلاد .

والخطابة أنواع : دينية وسياسية وقضائية واجتماعيـة وقد تكون علميـة فيهدأ أسلوبها وتُسمى: **محاضرة** بيد أنــه بيـن الخطبـة والمحاضرة عموم وخصوص فبالنسبة للسـامعين في الخطبة فهم أعم وبالنسبة لأسلوب المحاضرة فهو أهدأ ويميـل إلـي العلميـة أو العقلانية لا للعاطفة التي هي عماد الخطابة !

مقومات الخطبة الناجحة:

للخطبة ثلاثة عناصر :المقدمة والعرض والخاتمة ، علي غرار ما أشرنا إليه في المقال إلا أن خصائص أسلوب الخطابـة يتميـّز بالنقاط الآتية :

١- قوة الخطبة ومصدرها انفعال الخطيب بقوة عقيدتة ويقينه بما يقول ، ويظهر ذلك فـي عباراتـه المحكمـة وكلماتـه ذات الجرس المسيقي المؤثر والذي يتفاوت بحسب المواقف والانفعال بها.

٢- التكرار المعنوي لتثبيت الأفكار في الأذهان ولكن لا بـدَّ من تغيير العبارات

٣- تنوع الأسلوب بين الخـبر والإنشـاء بأنواعـه ، حتـى لايكون الإلقاء رتيباً وليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة أو تمتلي بها نفس الخطيب .

٤- ويجـب أن تكـون العبــارات مفهومـة للسـامعين خاليـة مـن الإغراب والتعقيد .

٥- السامعون هم المقياس الصحيح لمستوى الأسلوب ودرجة إجادته فإن كانوا من الخاصة كان الأسلوب رفيعا ساميا وإن كانوا من العامة كان الأسلوب مبسطاً سهلا .

٦- ويؤثر في الأسلوب الخطيب نفسه ، فيجب أن يكون جهير الصوت صافيه حسن الإلقاء مناسب الهيئة حسن الوقوف متزن الحركات خبيرا بنفسية السامعين قادرا علي الاندماج فيهم وعلي فهم ما يطرأ عليهم أثناء الخطابة من فتور فيعالجه أو غضب يتلافاه ويُحسن انتهاز الفرص واختيار الأوقات جاداً مرة ومازحاً أخرى ليصل إلي مراده [١]

وفي العصر[٢] العباسي: لما فترت الأحزاب السياسية واستقرت الدول واشتد اختلاط العرب بالأعاجم وقد تولوا كثيرا من قيادة الجيوش وعمالة الولايات ضعفت الخطابة السياسة كما ضعفت الخطابة المحفلية لضعف قدرتهم عليها وبقيت الخطابة قاصرة علي خطب الجمعة والعيدين وخطب الزواج وقل فيها الارتجال أو عدم وحل محل الخطابة السياسية في المور السياسية نشر المنشورات وفي الدينية مجالس الوعظ والتدريس في المساجد والمدارس واشتهر في صدر الدولة العباسية: (داود بن علي بن عبد الله بن عباس) خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم وأجدُ النابغين من إخوته -وكانو اثنين وعشرين رجلا - ولاه أبو العباس عقب بيعته الكوفة ثم ولاه إمارة الحج في هذه السنة وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية سنة ١٣٢ هـ وهو أول موسم ملكه بنو العباس وخطبهم الخطبة الآتية فقال :

" شُكرا شُكراً - إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ولا لنبني فيكم قصراً ، أظنّ عدوُّ الله أن لا نقدر عليه إن رُوخِي له من .

---

(١) راجع نصوص ودراسات أدبية منشورات جامعة صنعاء للدكاترة/ أحمد كراعين ومحمد رحومة ومحمد سعيد إسبر ص ٣٣ ط/١٩٨٨م .

(٢) راجع جواهر الأدب للهاشمي ص ٤١٥.

خطامه ، حتي عثر في فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها وعاد القوسُ إلي النزعة.، ورجع المُلك في نصابه ، في أهل بيت النبوة والرحمة ، والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن في فُرُشنا) أمِنَ الأسودُ والأحمرُ لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ، لاورب هذه البنية – وأومأ بيده إلي الكعبة – لانهيّج منكم أحداً "

ومن شعراء صدر الدولة العباسية أيضاً [١]:

" **شبيب بن شبة بن عبد الله المنقري التميمي** " خطيب البصرة ، امتاز بكريم خلق ونزاهة لسان ، كما امتاز بخُطبه القصيرة البليغة ، وقد اتصل بأبي جعفر المنصور قبل خلافته ثم اتصل به بعدها فجعله في حاشية وليّ عهده المهْدي . وبقي كذلك حتي ولي المهدي الخلافة فصار من خيرة سُمّاره وجُلسائه إلي أن مات في خلافته سنة١٦٥هـ ، ومن خُطبه القصار ما عَزّي به المهدي يوم ماتت ابنته البانوقة وجزع عليها جزعاً شديداً فقال شبيب:

" أعطاك الله يا أمير المؤمنين علي ما رُزئت أجراً . وأعقبك صبراً ولا أجهد الله بلاءك بنِقمه ولا نزع منك نعمَه ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ورحمةُ الله خيرٌ لها منك ، وأحق ما صُبِرَ عليه مالا سبيل إلي ردّه . "

وفي العصر العباسي الثاني ضعفت الخطابة الدينية [٢] علي ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمعة والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدي الورع الذي ظل في الحكم نحو عام..

ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد فأرتج عليه ولم تُسمع خطبته ، ولم يخطب خليفة بعده في العصر

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٦-٤١٧

(٢) راجع العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف ط/دار المعارف القاهرة ص ٥٢٦ ومابعدها .

سوى " **الراضي**" ولم تؤثر خطبته ..إلا أن الخطابة الدينية قد نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تعقد حلقات للوعظ والقصاص ، وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد وكان منهم الرسميون الذين تُعيِّنهم الدولة للخطابة .ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر .

مكانة الوعّاظ والمتصوفين :

وكان قصاص المساجد الوعاظ موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية وظل ذلك بعدهم حتي لنجد بعض مَن يُسند إليهم القصص يسند إليهم القضاء ، وكان من كبار الوعاظ في هذا العصر :" **أبو الحسن علي بن محمد** " الواعظ المصري المتوفي سنة ٣٣٨هـ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

ومن وعاظ هذا العصر أيضاً " **يحيي بن معاذ الرازي** " المتوفي عام ٢٥٨ هـ ويروى أنه جاء إلي شيراز فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظ الواعظ لن تُقبلا ● حتي يَعيها قلبُه أوّ لا !.

وانهال عليه الناس بعد ذلك انهيالا .وكذلك كان من أكبر وعاظ هذا العصر :" **أبو حمزة الصوفي** " المتوفي سنة ٢٦٩ هـ وهو أول من تكلم علي رؤوس المنابر ببغداد خالطا مواعظه باصطلاحات الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمّ والمحبة والعشق والأنس ، وكان هؤلاء الوعاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعاظ العاديون لقيام حياتهم علي الزهد والتقشف ، ورفض كل متاع وتكونت حول هؤلاء الوعظ من المتصوفة حكايات تصور جهادهم العنيف في قمع شهوات النفس ومن ذلك ما يحكى عن رويم بن أحمد المتوفي سنة ٣٠٣هـ وكان زاهداً ورعاً أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان فاستقي من دار ففتحت الباب صبية ومعها كوز ماء فأخذه منها وشرب ، فاستدارت له قائلة: صوفي يشرب بالنهار !!

فما أفطر بعد ذلك اليوم قط [١] !..

والمهم أن التصوف نشر بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وماعتقدته العامة فيما جرى علي أيديهم من الكرامات أدباً شعبياً قصصياً كان يدور بين الناس ومادة لنشر الموعظة بينهم في المساجد وغيرها .

ولعل خيرمايقص أخبار المتصوفة هو (كتاب أخبار الحلاج) وهوأخبار عنه بألسنة تلاميذه ، ومنهم :**إبراهيم الحلواني وأحمد بن سعيد الأسبينجاني** روى الأخير قال:سمعت الحلاج يقول :[٢]

" ألزم الله الكلَّ الحدوث لأنَّ القدم له . والذي بالجسم ظهورُه العرَض يلزمه ، والذي بالإرادة اجتماعُه قواها تمسكه ، والذي يؤلفه وقت يفرّقه وقت ، والذي يقيمُه غيرُه الضرورة تمسُّه والذي الوهم يظفر به التصوير يرتقي إليه ، ومَن آواه محلٌ أدركه أين ؟ ومن كان له جنس طالبه كيف ، إنه تعالى لا يظلُّه فوق ولا يُقلّه (يحمله) تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحدُّه أمام ، ولايُظهره قبل ولا يفوته بعد ولا يوجده كان ، ولايفقده ليس(عدم) ، وصفه لاصفة له ، وفعله لا علة له ، وكونه لا أمدَ له ، تنزَّه عن أحوال خلقه ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم"

ويستمر الحلاج في مثل هذا التنزيه لله سبحانه ، فهو لا يشبه الكائنات في شيء ولا يشبهونه في شيء ، تفرد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون ، وهو قديم "ليس كمثله شيء"

وواضح أن الحلاج يستخدم في كلامه السجع وبذلك لاءم بين أسلوبه ولأسلوب الكتابة في أوخر القرن الثالث وأواخر القرن الرابع ، وربما كان في إيثاره هذا الأسلوب أن يرتفع إلي الطبقة الخاصة محاولاً أن يؤثر فيها ، مودعًا فيها ما يُفسح للرمز والتأويل

---

(١) د. شوقي ضيف عن رسالة القشيري ص ٢١ ط مصر ١٣٤٦هـ .

(٢) أخبار الحلاج ص٣١ ، د. شوقي ضيف ص ٥٣٣ .

دليـــل الكتـــاب